المرأة فى شعر الخوارج

د. أحمد فهمي عيسى

كلية التربية بدمياط - جامعة المنصورة

كلية التربية للبنات بالطائف


﴿ ربنا افتح بيننا
وبين قومنا بالحق ﴾

إهداء

إلى الذى علمنى الحرف والكلام

إلى الأستاذ الدكتور/

محمد زغلول سلام

هذه نبتة من غرسك يا سيدى

أحمد فهمى عيسى

الأهرام
طباعة - نشر - توزيع / مدينة دمياط الجديدة

المقدمة :

تكاد ندور معظم الدراسات التى تناولت شعر الخوارج حول الإعجاب به ، ومثار إعجابهم أنه شعر جهادى عقدى ، فيه من القوة والثورة ما فيه ، ولكن فات البعض أن استبسال الخوارج وجهادهم كان موجهاً إلى جسد الأمة الإسلامية على اعتبار أنها أمة كافرة مادام أفرادها لم يلتزموا بما اعتقده الخوارج ، كل هذا أوهن قوة الأمة وفل عزيمتها فانشغلت بهم عن جهادها الخارجى ، ولم نعرف أن الخوارج وقفوا مرة واحدة فى وجه أعداء الإسلام .

ولهذا جاء هذا البحث ليجلى ما فعله الخوارج من خلال إطلالة جديدة تتمثل فى دراسة " المرأة فى شعر الخوارج " ، لنجيب على عدة أسئلة ننفذ منها إلى فكر الخوارج وخطورته ، مثل : هل كانت المرأة الخارجية مثل جميع النساء فكانت امرأة مدللة كما كانت عند عمر بن أبى ربيعة ؟ أم كانت حلماً كما كانت عند العذريين ؟ أم كانت شيئاً آخر ؟ .

هل كان للمرأة دور فى جهاد الخوارج وتكوين فكرهم ؟ هل تغلبت المرأة الخارجية على نوازعها الإنسانية فى سبيل مذهبها وعقيدتها ؟ أم أن نوازعها كانت تتقلب عليها فنراها إنسانة عادية تضعف أمام نوازعها ورغباتها النفسية ؟ .

هل خلّفت المرأة الخارجية تراثاً شعرياً يدل عليها أو يدل على الخوارج وفكرهم وعقيدتهم ؟ .

هذا ما يحاول هذا البحث أن يجيب عليه ويبرزه ، متتبعاً صورة المرأة الخارجية من خلال شعر الخوارج رجالاً ونساءً ، فى فترة زمنية تمتد

منذ قيام هذه الفرقة وخروجهم على الإمام على رضـــى الله عنـــه ، مـــروراً بحضورهم القوى فى الدولة الأموية وامتدادهم الضعيف فى الدولة العباســية إلى عهد هارون الرشيد حيث وُجدت أخبار لنساء خارجيات .

وقد جاء هذا البحث فى تمهيد وثلاثة فصول :

التمهـــــيد : يوضح فكر الخوارج وفرقهم والفظائع التى ارتكبوها .

الفصـل الأول : المرأة مقاتلة ، حيث يتناول هذا الفصل شخصيات نســائية شاركت الخوارج فى جهادهم وقاتلت جنباً إلـــى جنـــب مـــع الرجل.

الفصل الثانى : المرأة إنسانة ، حيث يتناول هذا الفصل المـــرأة كمركـــب إنسانى لها غرائز ورغبات تحركها وتتحكم فيها .

الفصـل الثالـث : المرأة شاعرة ، حيث يتناول هذا الفصـــل شـــعر نســـاء الخوارج : موضوعاته ، وقضاياه الفنية .

ثم أنهينا البحث بخاتمة تحتوى على أهم نتائج البحث .

كل هذا مع تجلية فكر الخوارج ومدى خطورة فكرهم وبقـــاء أثـــرهم حتى عصرنا هذا ، حيث توجد بعض الجماعات التى تمثـــل امتـــداداً للفـــرق الغالية من الخوارج .

هذا وإنى لأرجو بذلك أن أكون قد ألقيت الضوء على بعض القضـــايا الشائكة ، أو أظهرت جانباً مهملاً من دراسات الأدب السياسى .

فإن وفقت فمن الله عز وجل ، وإن كانت الأخرى فحسبى أننى حاولت واجتهدت ، والله الموفق .

أحمد فهمى عيسى

تمهيـد

الخـوارج سـيرة وتاريخـاً

يجدر بنا قبل دراسة المرأة فى شعر الخوارج أن نتعرف على البيئـة الفكرية التى نشأت فيها وهى بيئة الخوارج ، فنحاول أن نعرف من هم ؟ وما مبادئهم؟ وما فرقهم ؟ وما أثرهم على الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً ؟ ، وبعـد هذا نستطيع أن نميز بين سمات المرأة الخارجية والمرأة الأخرى .

تطلق كلمة الخوارج على أولئك النفر الذين خرجوا على " علىّ " بـن أبى طالب رضى الله عنه بعد قبوله التحكيم عقب معركة " صفين " ، إذ اعتبر هؤلاء التحكيم خطيئة تؤدى إلى الكفر ، ومن ثمَّ طلبوا من " علىّ " أن يتـوب عن هذا الذنب ، وانتهى الأمر بأن خرجوا من معسكره .

والعجيب فى الأمر أنهم هم الذين دفعوا علياً إلى التحكيم بعد أن كـان متردداً فى قبوله " حتى إن الأشتر بن الحارث قائد جيش علىّ عـنفهم بقولـه لهم: يا أصحاب الجباه السّود كنا نظن أن صلاتكم عبادة وشوق إلى الجنـة ، فنراكم قد فررتم إلى الدنيا فقبحاً لكم ، فسـبوّه وسـبّهم ، وضـربوا دابتـه بسياطهم، وضرب هو وجوه دوابهم بسوطه ، وكان مسْفر بن فَـدَكى وابـن الكواء وطبقتهم من القرّاء الذين صاروا بعدُ خوارج كانوا من أشدّ الناس فـى الإجابة إلى حكم المصحف " [1] .

والأعجب من هذا أنهم هم الذين رشحوا أبا موسى الأشعرى لينـوب عن علىّ فى التحكيم على غير رغبة علىّ ، الذى كان يرشح ابن عباس لذلك،

---

[1] – الأخبار الطوال : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدّينَورى ، تحقيق عمر فاروق الطبـاع ، ص ١٧٥ ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، وابن الكواء المشار إليـه هـو أول زعـيم للخوارج فيما بعد .

ولتنظر فى هذا الحوار الذى دار بينهم وبين علىّ رضى الله عنه فيما جاء فى الأخبار الطوال [1] :

" قال الأشعث ومن كان معه من قراء أهل العراق : قد رضينا نحن بأبى موسى " :

فقال لهم علىّ : لست أثق برأى أبى موسى ، ولا بحزمه ، ولكن أجعل ذلك لعبد الله بن عباس .

قالوا : " والله ما نفرق بينك وبين ابن عباس ، وكأنّك تريد أن تكون أنت الحاكم ، بل اجعله رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى أحد منكما بأدنى منه إلى الآخر " .

قال علىّ رضى الله عنه : " فلم ترضون لأهل الشام بابن العاص ، وليس كذلك " .

قالوا : " أولئك أعلم ، إنما علينا أنفسنا " .

قال علىّ : " فإنى أجعل ذلك إلى الأشتر " .

قال الأشعث : " وهل سعّر هذه الحرب إلاّ الأشتر ، وهل نحن إلاّ فى حكم الأشتر " .

قال علىّ : فقد أبيتم إلاّ أن تجعلوا أبا موسى " .

قالوا : نعم .

قال : " فاصنعوا ما أحببتم " .

هذا قبل التحكيم وبعد التحكيم يخرجون على " علىّ " لأنه قبل به قائلين : " لا يحكم الرجال فى دين الله " أو " لا حكم إلا لله " فعقب علىّ رضى

---

[1] - الأخبار الطوال ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

الله عنه على قولهم " كلمة حق يراد بها باطل " [1] ، وبعدها اعتزلوا عليا وجيشه وسموا بالمُحَكِّمة ثم أطلق عليهم اسم الخوارج ، ثم أصبحوا فرقة متميزة معروفة .

ومن ذلك الوقت أصبح لهم تاريخ معين وصار لهم وضع مستقل " ثم إن الخوارج بعد رجوع عليّ من صفين إلى الكوفة انحازوا إلى حَرَوْراء ، وهم يومئذ اثنا عشر ألفاً ، ولذلك سميت الخوارج حَرورية وزعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء وشبث بن ربعى ، وخرج إليهم عليّ يناظرهم فوضحت حجته عليهم فاستأمن إليه ابن الكوّاء مع عَشَرة من الفرسان ، وانحاز الباقون منهم إلى النهروان ، وأمّروا على أنفسهم رجلين أحدهما : عبد الله بن وهب الراسبى ، والآخر : حَرقوص بن زهير البَجَلى المعروف بذى الثُدَيّة [2].

وعندما أراد عليّ أن يخرج على نتيجة التحكيم بحجة أن الحكمين خالفا القرآن والسنة فى التحكيم ، وفى أثناء إعداده جيشاً ليزمعوا السير نحو أعدائهم فى الشام ، ولمّا تهيأ للمسير أتاه من الخوارج أخبار فظيعة من قتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت وامرأته ، وذلك أنهم لقوهما ، فقالوا لهما : أرضيتما بالحكمين ؟ ، قالا : " نعم " فقتلوهما ، وقتلوا أمّ سنان الصَّيداوِيّة ، واعتراضهم الناس يقتلونهم فلما بلغه ذلك بعث إليهم الحارث بن مرة الفَقعسى ليأتيه بخربهم ، فأخذوه فقتلوه " [3] .

---

[1] - انظر الملل والنحل للشهرستانى ، ص ١١٥ .

[2] - الفرق بين الفرق : لعبد القاهر البغدادى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

[3] - الأخبار الطوال ، ص ١٩٠ .

فغيّر عليّ رضى الله عنه وجهة جيشه إلى النهروان حيث يعسكر الخوارج فلمّا قَرُبَ عليّ منهم أرسل إليهم : أن سلّمُوا قاتل عبد الله بن خبَّاب ، فأرسلوا إليه : إنا كلنا قتله ، ولئن ظفرنا بك قتلناك ، فأتاهم عليّ فى جيشه وبرزوا إليه بجمعهم " [1] .

ثم حاجهم قبل القتال حتى صدّقه أكثرهم وقالوا التوبة ؛ واستأمن إليه منه يومئذ ثمانية آلاف ، وانفرد منهم أربعة آلاف بقتاله مع عبد الله بن وهب الراسبى وحُرْقوص بن زهير البجلى .. قتلوا جميعاً ولم يُفلت منهم غيرُ تسعة أنفس ، صار منهم رجلان إلى سجستان ، ومن أتباعهما خوارج سجستان ، ورجلان إلى اليمن ومن أتباعهما إباضية اليمن ، ورجلان صارا إلى عُمان ومن أتباعهما خوارج عمان ، ورجلان صارا إلى ناحية الحزيرة ، ومن أتباعهما كان خوارج الجزيرة ، ورجل منهم صار إلى تل موزن [2] " .

ويمكن القول إن حركة الخوارج قد أصابها الضعف بعد معركة النهروان ، وكادت أن تنهار ، على الرغم من أنهم قاموا بعدة حركات صغيرة تمثل آخر ما عندهم من قوة ، وذلك سنة ٣٨ هـ ، أما بعد سنة ٣٨هـ إلى سنة ٤١هـ فإنهم ظلوا هادئين ، والسبب فى ذلك يرجع إلى الهزيمة النكراء التى لحقت بهم فى النهروان ، قضت على خيرة زعمائهم ، ثم إن الإمام عليّ فى سابقته وجهاده ، وفضله ، وقوة شخصيته ، وقوة حجته ، كان له أثر بالغ

[1] – الفرق بين الفرق ، ص ٧٨ .

[2] – نفسه ، ص ٨٠ ، ٨١ .

فى ضعف حركتهم ، فقد استطاع أن يقنع أهل حروراء حتى تخلوا عن مركزهم فيها ورجعوا إلى الكوفة " [1] .

ولكن ظل المعركة النهروان فى نفوس الخوارج ، ما لكربلاء من الأثر البالغ فى نفوس الشيعة ، ذلك الأثر الذى حدا بهم إلى قتل علىّ بن أبى طالب بيد أحدهم وهو عبد الرحمن بن مُلْجَم المرَاوى .. فقتل على رضى الله عنه كان ثأراً لقتلى النهروان من أهل قطام ابنة علقمة من تيم الرباب ، وكانت فتاةً ذات حسن وجمال ، قُتل أبوها وأخوها فى المعركة ، خطبها ابن مُلْجَم ، فطلبت صداقها قتل علىّ وثلاثة آلاف درهم وعبداً وأمة " [2] ، فوافق ابن مُلجَمَ على ذلك ، فلما كانت تلك الليلة تقلّدَ سيفه ، وقد كان سمَّه وقعد مُغَلِّساً ينتظر أن يمر به علىّ رضى الله عنه مقبلاً إلى المسجد لصلاة الغداة .

فبينما هو فى ذلك إذ أقبل علىّ وهو ينادى : الصلاة أيها الناس فقام إليه ابن مُلْجم فضربه بالسيف على رأسه ، وأصاب طرفُ السيف الحائط فثلم فيه ، ودُهش ابن مُلْجَم فانكب لوجهه ، وبدر السيف من يده ، فاجتمع الناس فأخذوه ... وحُمل علىّ رضى الله عنه إلى منزله ولم يُمس عنه يومه ذلك حتى مات رحمه الله ورضى عنه " [3] ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٣٨ من الهجرة كما يقول البغدادى ، وفى سنة ٤٠هـ كما يذهب أكثر المؤرخين [4].

---

[1] – الخوارج ، ناصر عبد الله السّعوى ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، دار المعراج الدولية ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

[2] – السياسة والأدب فى العصر الأموى ، ص ١٠١ .

[3] – الأخبار الطوال ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

[4] – انظر هامش ، الفرق بين الفرق ، ص ٨١ .

" ولما جاءت الدولة الأموية استمر الخوارج كقــوة مناهضـــة لهــا ، وخاضوا كثيراً من المعارك الانتحارية ضد جيوش الأمويين وولاتهم وظهرت فرق خارجية عديدة كالأزارقة والنجدات والصفرية والعجــاردة والإباضـــية وغيرهم ، ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يردهم إلى الحق[1]، كما حاول على بن أبى طالب من قبل ، إذ رأى من بينهم كما قال : أناساً قــد ضللوا فضلوا ، وأنهم كانوا يبغون الحق فأخطئوا سبيله ، ولكنه فـــى النهايـــة يئس من إصلاحهم وردهم إلى الصواب ، ومن ثم لم يكن أمامـــه إلاّ قتـــالهم وحربهم .

وهكذا استمر الخوارج شوكة فى جنب الدولة الأموية يجاهدون فـــى سبيل إسقاطها وتقويض أركانها ، واستطاعوا فى بعض الأحيان أن يبســطوا نفوذهم على أرض فارس والعراق وبعض مناطق مـــن الـــيمن والجزيـــرة ، وقابلهم الأمويون عنفاً بعنف وحاولوا سحقهم بكل قسوة وشدة حتى انكســرت شوكتهم وقتل أكثرهم [2] .

وقد جاءت الدولة العباسية والخوارج فى أخريات أيامهم ، فقد أنهكوا الدولة الأموية ، وأنهكتهم ، ونالوا منها ونالـــت مـــنهم ، حتـــى إذا أعقـــبهم العباسيون كان الخوارج فى حالة تشبه الاحتضار ، وحركاتهم التى أتوا بهـــا فى العصر العباسى تشبه حركة المذبوح ، فلم يتح – من أجل هذا – للمذهب الخارجى فرصة أن يتفلسف " [3] .

---

[1] – انظر : مروج الذهب للمسعودى ، جـ٣ ، ص ٢٠٠ ، ص٢٠٢ .

[2] – دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، د. أحمد محمد أحمد جلـــى ، ص ٦٠ ، ٦١ ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

[3] – ضحى الإسلام : أحمد أمين ، جـ ٣ / ٣٣٥ .

ورغم هذا قام الخوارج بثورات عديدة فى أنحاء متفرقة من الدولة العباسية حيث " كان نظر الخوارج إلى خلفاء بنى العباس كنظرهم إلى خلفاء بنى أمية كلهم لا يصلح للخلافة ، ولم يُختر اختياراً حُراً صريحاً ، ولم يستوف الشروط التى يجب توافرها فى الإمام ، وكلهم يجب الخروج عليه ، ومقاتلته وعزله وقتله إن أمكن " [1] .

ولهذا " خرج الإباضية فى عُمان بقيادة الجلندى ضد جيوش السفاح وراح ضحية هذه الحرب قرابة العشرة آلاف ، وفى عهد المنصور قاد ملبد بن حرملة الشيبانى الخوارج بالجزيرة عام ١٣٨هـ ، وقتل منهم عدد كبير ، وفى المغرب الإسلامى أشعل الخوارج بقيادة أبى حاتم الإباضى حرباً ضد جيوش العباسيين ، دامت خمس عشرة سنة وقتل فيها خلال ٣٧٥ موقعة ما يربو على الثلاثين ألفاً .

وفى عهد المهدى خرج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم بخرسان ، كما خرج يس التميمى بالموصل واستولى على ديار ربيعة بالجزيرة ، وفى عهد الرشيد خرج الصحصح بالجزيرة وغلب على ديار بكر ، كما شهد عهده أيضاً ثورة الوليد بن طريف بالجزيرة ، وكانت من أعنف ثورات الخوارج التى شهدها عصر العباسيين ، وكان ذلك فى سنة ١٧٨هـ [2] .

---

[1] - نفسه . جـ٣ / ٣٣٧ .

[2] - انظر : دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، ص ٦٠ ، ٦١ ، ضحى الإسلام ، جـ٣ ، ص ٣٣٨ وما بعدها ، وتاريخ الطبرى جـ٧ ، ص ٤٦٢ وما بعدها ، والكامل فى التاريخ ، جـ٥ ، جـ ٦ وغيرها .

وفى سنة ٢٣١هـ ظهر خارجى ببلاد ربيعة فقاتله نائب الموصل ، فكسره وانهزم أصحابه [1] .

وكان ذلك من آخر ما قام به الخوارج من حركات ثورية طائشة ، فقد كسرت شوكتهم وتفرقت كلمتهم ، ولم يبق إلا من كان أقرب إلى الاعتدال منهم .

☯ ☯ ☯

هذا بإيجاز نبذة عن تاريخ الخوارج أما عن سبب تسميتهم "بالخوارج" والألقاب التى لقبوا بها فأشهرها ما يلى :

١- الخوارج : سموا بذلك لخروجهم على علىّ رضى الله عنه بعد التحكيم ، وقيل بل هم الذين أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم حيث فسّروا الخروج بأنه خروج من بيوتهم جهاداً فى سبيل الله وفقاً لقوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ صدق الله العظيم

(النساء ١٠٠)

٢- الشراة : والسبب فى هذا قولهم : شرينا أنفسنا فى طاعة الله ، أى بعناها بالجنة ، وذلك كما ورد فى قوله تعالى :

---

[1] - انظر البداية والنهاية ، جـ١٠ / ٣٠٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ صدق الله العظيم (البقرة ٢٠٧)

٣- المُحَكِّمة : لرفعهم شعار " لا حكم إلا لله " والتفافهم حولـه ، أو لإنكارهم التحكيم بين عليّ ومعاوية رضى الله عنهما .

٤- الحَرورية : وذلك أنهم لما فارقوا علياً – رضى الله عنـه – بعـد حادثة التحكيم اجتمعوا فى حَرُوْرَاء ، وهى ضاحية من ضواحى الكوفة ، ومن ثم سموا بالحرورية نسبة إلى هذه الضاحية .

هذا وإن كان الاسم الذى غلب عليهم هو " الخوارج " لأنهم خرجـوا على : عليّ " ومعاوية ، وإن كان الشهرستانى يرى أن : " كل من خرج على الإمام الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً " سواء كان الخروج فى أيـام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمـة فى كل زمان " [١] .

ولكن اللقب يطلق فى النهاية على تلك الفرقة التى بدأت بالظهور بعد معركة صفين تألفت جموعها الأولى من العَرب الخلص ، رجال الصحراء ، لاسيما من القبائل ذات البأس وجماعة من أهل الصيام والصلاة ، وعدد مـن القرّاء من جند الإمام عليّ ، ثمّ انضم إليها مع مرور الزمن كثير من العـرب

[١] – الملل والنحل ، ص ١١٤ .

وغير العرب على اختلاف أجناسهم ، وتعدد منازلهم ، وانقسموا إلـى فـرق وتوزّعوا فى البلدان العربية [1] " .

أما عن صفات الخوارج [2] ، فقد اتصفوا بصفات كثيرة جعلتهم قوماً خصمين يجادلون عن مذهبهم ، ومن هذه الصفات :

١- **الفصاحة وطلاقة اللسان ومعرفة طريقة تأثير الكلام** ، ومن الأمثلة على فصاحتهم أنه : " قَدّموا رجلاً من الخوارج إلـى عبـد الله بـن مَـرْوان لتضرب عنقه ، ودخل على عبد الملك ابن له صغير ، ضربه المعلـم ، وهو يبكى ، فهمّ عبد الملك بالمعلم ، فقال له الخارجى : دَعُوه يبكى فإنه أفتح لجرمه (الحلق)، وأصحّ لبَصَره ، وأذهب لصوته . قال لـه عبـد الملك أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال الخارجى : ما ينبغى لمسلم أن يشغله عن قول الحق شىء فأمر بتخلية سبيله [3] " .

٢- **الشجاعة الخالصة النادرة** ، فيحكى عن الحجاج أنه " قال لرجـل مـن الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقاً كان فأجمعـه . قـال أتقـرؤه ظاهراً ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه . قال أفتحفظه ؟ قال : أخشـيت فِراره فأحفظه . قال : ما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : لعنه

[1] – المعجم الأدبى ، جبور عبد النور ، ص ١٠٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ص ١٩٧٩م.

[2] – انظر الموسوعة العربية العالمية ، جـ١٠ ، ص ١٧٦ ، مؤسسة أعمال الموسـوعة ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م .

[3] – البيان والتبيين ، جـ١ ، ٢٥٩ .

الله ولعنك معه . قال إنك مقتول فكيف تلقى الله ؟ قال ألقـــى الله بعملـــي وتلقاه بدمى [1] " .

٣- **التشدد فى العبادة والانهماك فيها** ، فهم أهل صلاة وصيام ، أخلصـــوا لعقيدتهم ، وقاتلوا دفاعاً عنها ، لذلك نظر إليهم كثير من النـــاس نظـــرة عطف وإشفاق .

ولكنهم كما قال فى أمثالهم الرسول ﷺ : " تحقر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم ، وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ، ولكـــن لا يُجـــاوز إيمانهم تراقيهم [2] .

٤- **حبهم للجدل والمناقشة ومذاكرة الشعر وكلام العرب** ، وغلبة التعصـــب على جدلهم ، وعدم التسليم للخصوم بحجة وعدم الاقتناع بفكرة ، مهمـــا كانت قريبة من الحق أو واضحة الصواب .

☯ ☯ ☯

أما بالنسبة لفرق الخوارج ، فقد كان الخوارج فى أول أمرهم طائفـــة واحدة يدعون بالمحكِّمة ، وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبى طالب – رضى الله عنه – ورفعوا شعار " لا حكم إلا لله " . فالمحكِّمـــة هـــم أصل الخوارج ، وقد ظلت الخوارج على ما كانت عليه طائفة واحدة حتى سنة ٦٤هـــ ، حيث دبّ النزاع بينهم واختلفت كلمتهم ، ثم إنهم بعد مفارقتهم لعبـــد الله بن الزبير فى مكة لما تبين لهم مخالفته لرأيهم ، تفرق القوم : فأقبل نـــافع بن الأزرق الحنظلى ، وعبد الله بن صفار السعدى من بنى صريم بن مقاعس،

---

[1] – البيان والتبيين ، جـــ٢ / ١٤٨ / ١٤٩ .

[2] – الملل والنحل ، ص ١١٥ .

وعبد الله بن إباض ، أيضاً من بنى صريم وحنظلة بن بيهس ، وبنو الماحوز: عبد الله ، وعبيد الله والزبير من بنى سليط بن يربوع ، حتى أتـوا البصـرة وانطلق أبو طالوت من بنى زمان بن مالك بن صعب بن مالك بن بكـر بـن وائل ، وعبد الله بن ثور أبو فديك من بنى قيس بن ثعلبة ، وعطية بن الأسود اليشكرى إلى اليمامة ، فوثبوا باليمامة مع أبى طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلـك على نجدة بن عامر الحنفى [1] " .

فالخوارج لم يستمروا كتلة واحدة وإنما كان واضحاً فـيهم الطبيعـة العربية البدوية ، فسرعان ما يختلفون ، وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضها بعضاً ، ولو اتحدوا لكانوا قوة فى منتهـى الخطـورة علـى الدولـة الأموية[2] " أكثر مما كانوا .

ولكن كل جماعة كوّنت فرقة فى البلد التى ذهبوا إليها ولهذا رأينـاهم جماعات عدة ، حتى أن الجماعة الواحدة يتشـعب عنهـا عـدد كبيـر مـن الجماعات والتى قد لا تختلف عن بعضها إلاّ فى أمور فرعية بسيطة ، ولهذا اختلفت النظرة إلى عدد فرق الخوارج ، فالبعض يحصى الأصول والفـروع كالبغدادى فى الفرق بين الفرق والذى قال : " الخوارج عشرون فرقة ، وهذه أسماؤها :المحكمة الأولى ، والأزارقة ، والنجدات ، والصُّفرية ، ثم العجاردة، المفترقة فرقاً منها : الخازمية ، والشـعيبية ، والمعلوميـة ، والمجهوليـة ، وأصحاب طاعة لا يراد الله تعالى بها ، والصّلتية ، والأخنسية ، والشـبيبية ،

---

[1] – الخوارج ، ناصر عبد الله السعوىّ ، ص ٧٠ .

[2] – فجر الإسلام : أحمد أمين ، ص ٢٥٩ ، مكتبة النهضة المصـرية ، الطبعـة (١٣) ، ١٩٨٢ .

والشيبانية ، والمعْبدية ، والرشيدية ، والمكرمية ، والحمزية ، والشـمراخية ، والإبراهيمية ، والواقفة ، والإباضية . والإباضية منهم افترقت فرقاً معظمهـا فريقان : حفصية ، وحارثية . فأما اليزيدية من الإباضية ، والميمونية مـن العجاردة فإنهما فرقتان من غلاة الكفرة الخارجين عن فرق الأمة [1] " .

وكل هذه الفرق منسوبة إلى أسماء رجال كما لاحظنا فكل من يخرج على قائده يكوّن فرقة من أنصاره تحمل اسمه ، ولكن الفروق بين هذه الفرق بسيطة كما أشرنا إلاّ فى بعض الفرق الأساسية كالأزارقة .

ولهذا وجدنا الشهرستانى يجعل هذه الفرق سـبع فـرق ، فيقـول : " وكبار الفرق منهم : المحكمة والأزارقة ، والبيهسية ، والعجاردة ، والثعالبة ، والإباضية ، والصفرية ، والباقون منهم [2] " .

والبعض يرى أن فرق الخوارج عبارة عن أربع فرق أساسـية بعـد المحكِّمة الأولى ، وهى : الأزارقة ، والنجدات ، والإباضـية ، والصـفرية ، فهى أشهر فرق الخوارج وأكثرها دوراناً فى الكتب [3] ، ومعظم الفرق السابقة تفرعت عن الفرق الأربع .

وكل فرق الخوارج تجتمع على افتراق مذاهبها علـى إكفـار علـىّ وعثمان، والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بتحكيم الحكمـين ، والإكفار بارتكاب الذنوب ، ووجوب الخروج على الإمام الجائر ، إذا خـالف

---

[1] – الفرق بين الفرق ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

[2] – الملل والنحل ، ص ١١٥ .

[3] – فجر الإسلام ، ص ٢٦١ ، وانظر التطور والتجديد ، د. شوقى ضيف ، ص ٨٨ .

السنة حقاً وواجباً [1] " ، وجوّزوا أن تكون الإمامة فى غير قريش . وكل مـــن نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل ، واجتناب الجور كان إماماً ، وإن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله [2] " .

هذه هى المبادئ الأساسية التى اجتمعت حولها فرق الخوارج والتـــى وضعها فى الأساس الجيل الأول من المحكمة الأولى ، ولكن بقيــت بعــض الاجتهادات التى صاحبت بعض فرقهم واختلفت فيها عن غيرها مـــن الفـــرق والتى بنيت عليها ممارسات خاطئة ، سنحاول أن نشير إليها مع عرضنا لأهم الفرق الخارجية الأربع التى أشرنا إليها :

١- الأزارقة :

هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفى المكنّى بـــأبى راشـــد ، ولـــم تكـــن للخوارج قطُّ فرقة أكثر عدداً ولا أشد منهم شوكة [3] ، وكان نافع كمـــا يُـــذْكر على قدر كبير من الشجاعة وعلى معرفة بالقرآن ومقدرة علـــى الخطابـــة ، ويقال إنه كان ينتجع عبد الله بن عباس ، وهو بمكة يسأله عن تفسير القرآن ، وفى إحدى المرات أخذ نافع يسأل ابن عباس عن المفردات اللغوية فى القرآن الكريم حتى ملّه ابن عباس وضجر منه [4] .

---

[1] – الفرق بين الفرق ، ص ٧٣ ، وانظر : الملل والنحل ، ص ١١٥ .

[2] – الملل والنحل ، ص ١١٦ .

[3] – الفرق بين الفرق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

[4] – انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، جـــ١ ، ص ١٥٨ ، وما بعدها .

والظاهر أن نافعاً أراد استثمار ثورة ابن الزبير وتوجيهها لصالح حركة الخوارج ، فدعا خوارج البصرة للذهاب إلى مكة لهذا الغرض وإن كان يتظاهر بالدفاع عن حرم الله .

وبعد أن رجع نافع بن الأزرق إلى البصرة ومعه عدد من الخوارج التقطهم عبيد الله بن زياد فأودعهم السجن ، وقد ظل نافع هذه المرة فى السجن ومعه عدد كبير من الخوارج إلى أن ضعف سلطان بن زياد فى البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية بفترة قصيرة ، وعند ذلك خرجوا من السجن بصورة جماعية ، وفى هذه الفترة نشط نافع وأصحابه وأشاعوا الاضطراب فى البصرة وقتلوا بعض الأفراد .

ثم انتقل نافع إلى الأهواز لتكون قاعدة انطلاقاته ، ولكن عدداً من زعماء الخوارج لم يبايعوا نافعاً ولم يخرجوا معه ، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم نافع " قعدة الخوارج " فكفرهم بقعودهم عن الجهاد وإن كانوا موافقين له فى الرأى فأصبح هؤلاء فيما بعد زعماء لفرق خارجية أخرى [1]

ومن الأهواز سيطر الأزارقة على جزء كبير من بلاد فارس وكرمان، وأقاموا يستعرضون الناس ، ويسفكون الدماء ويقتلون الأطفال ، حتى روّعوا سكان هذه الأماكن وامتد نفوذهم إلى البصرة ، ودخل معهم عمال الزبير فى تلك الجهات فى عدة مواقع لم يستطيعوا هزيمة الأزارقة ، ومن أشهر هذه المواقع موقعة دولاب التى تقاتل فيها الفريقان حتى تكسرت النصال وقتل فيها

---

[1] - الخوارج : ناصر عبد الله السعوى ، ص ٧٥ .

نافع بن الأزرق ، واستمر الأزارقة بعد نافع ، وقاموا بعدة حملات ضـد ولاة عبد الله بن الزبير .

ولما استولى الأمويون من بعد ابن الزبير على تلك الجهات ، دخلـوا مع الأزارقة أيضاً فى حروب عنيفة ، واستطاع القائد المهلب بن أبى صـفرة أن يلحق بهم عدة هزائم حتى كسر شوكتهم ، وكان الأزارقة قد بايعوا بعد نافع عدة أمراء من أشهرهم الشاعر المشهور قَطَرىّ بن الفجاءة الذى قتل وأرسلت رأسه إلى الحجاج ، وبعده قتل أبو عبيدة هلال اليشكرى ومن معه وانتهى أمر الأزارقة بمقتله . حيث ضعف أمرهم كجماعة اشتهرت بالعنف والقسوة وشدة البطش والبأس ، وامتلأ تاريخهم بالدماء والقتل والنهب والسلب ، وأكدوا كـل هذه الصفات فى مبادئهم وتعاليمهم التى تبنوها وحاولوا بكل عنف تطبيقها [1] ،

وكان من أهم مبادئ هذه الفرقة ما يلى :

١- قولهم بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون وأن دارهم دار الكفر .
٢- تكفيرهم عليّا – رضى الله عنه – وتصويب ما قام به عبد الرحمن بـن مُلْجَم .
٣- تكفيرهم القعدة – ممن كان على رأيهم – عن الهجرة إليهم ، حيـث إن نافعاً من أظهر البراءة من القعدة عن القتال ، وإن كان موافقاً على دينه، وأكفر من لم يهاجروا إليه .
٤- استباحتهم قتل نساء مخالفيهم ، وقتل أطفالهم ، وزعمهـم أن الأطفـال مشركون ، والقطع بأن أطفال مخالفيهم مُخلَّدون فى النار .

[1] – دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، ص ٦٨ .

٥- إسقاط الرجم عن الزانى ، إذ ليس فى القرآن ذكره ، وإسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء .

٦- اجماع الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كَفَرَ كُفْرَ ملة خرج به عن الإسلام جملةً ، ويكون مخلداً فى النار مع سائر الكفار .

٧- التقية غير جائزة لا فى قول ولا عمل .

٢- النَّجْدات :

هم أتباع نَجْدَة بن عامر الحنفى ، وهو من أصحاب نافع بن الأزرق الذين انفصلوا عنه لأسباب مذهبية اجتهادية ، وذلك عندما أظهر نافع آراءه المتطرفة مثل البراءة من القعدة بعد أن كانوا على رأيه وسماهم مشركين ، واستحل قتل أطفال مخالفيه ونسائهم ، حيث رجع نجدة إلى اليمامة ومعه أبو فديك ، وعطية الحنفى وغيرهم من كبار الخوارج أمّروا نجدة عليهم وأطلقوا عليه أمير المؤمنين وأصبح أميراً على طائفة من الخوارج عرفوا بالنجدات ، وأصبح لنجدة وأتباعه نفوذ فى دائرة واسعة شملت البحرين وشواطئ الخليج ، وامتدت إلى عُمان وبعض أجزاء اليمن [١] " .

وظل أمرُ نجدة يتصاعد إلى أن دب الخلاف بينه وبين أصحابه لمآخذ أخذوها عليه ، ولعل أشدها كان حين رموه بالخيانة والتواطؤ مع عبد الملك ابن مروان الذى كتب إليه يدعوه إلى طاعته ، على أن يعفو عنه ويوليه على اليمامة وما حولها ... ثم اشتدت النقمة على نجدة ، فانحاز أتباعه عنه

---

[١] - انظر : الفرق بين الفرق ، ص ٨٧ .

وتحوّلوا إلى أبى فديك عبد الله بن ثور فلما شعر نجدة بالخطر يحـدق بـه ، هرب واستخفى ، فألح أبو فديك فى طلبه حتى أدركه فى قرية من قرى حجر ، حيث أتاه بعض أنصار أبى فديك ، فقتلوه فى سنة ٧٢هـ [١] .

وتحول النجدات إلى ثلاث فرق استطاع الحجاج بواسطة عمر بن عبد الله بن معمر أن يهزمهم ويقضى عليهم قضاءً مبرماً .

ومن مبادئ النجدات ، ما يلى :

١- أنكروا على الأزارقة إكفارهم للقعدة منهم ممن لم يهاجر إليهم وامتد منهم الأمر إلى تكفير نافع ومن قال بإمامته [٢] .
٢- أن التقية جائزة فى القول والعمل كله [٣] .
٣- ومن ضلالته – أى نجدة بن عامر – أنه أسقط حد الخمر ، ومنها أيضاً أنه قال : من نظر نظرة صغيرة ، أو كذب كذبة صغيرة ، وأصرّ عليهـا فهو مشرك ، ومن زنى ، وسرق ، وشرب الخمر غير مُصِرٍ عليه فهـو مسلم ، إذا كان من موافقيه على دينه [٤] .
٤- يجيز النجدات أن يكون العالم بلا إمام ، إذا تناصف الناس فيما بينهم [٥] .

---

[١] – الخوارج فى العصر الأموى . لنايف معروف ، ص ١٤٩ ، دار الطليعة ، بيـروت ، الطبعة الرابعة ، ص ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .
[٢] – الفرق بين الفرق ، ص ٨٧ .
[٣] – الملل والنحل ، ص ١٢٢ .
[٤] – الفرق بين الفرق ، ص ٨٩ .
[٥] – الملل والنحل ، ص ١٢٢ .

٣- الصُّفْرِيَّة :

هناك خلاف واسع حول نسبة الصُّفْرِيَّة، وهل سموا بذلك نسبة للصفرة التى تعلو وجوههم من أثر العبادة والزهد ؟ أم سموا بذلك نسبة إلـى رجـل بعينه كما نسبت الأزارقة والنجدات والإباضية ؟ ومن ذهبوا إلى هذا الـرأى الأخير اختلفوا فى هوية من ينتسب إليه الصّفرية : هل هو عبد الله بن صفار أم زياد بن الأصفر ؟ أم النعمان بن صفر ؟ وأرجح هذه الأقوال أن هذه الفرقة تنسب إلى زياد بن الأصفر [1] .

وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة ، حيث ظهر فيهم بعـد زياد " صالح بن مسرّح " ثم خلفه آخرون ، وقد خرج صالح عام ٧٦ هـــ ، وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، وغنم منها سلاحاً ومالاً ، فعظم شأنه ، وزحف برجاله نحو الكرخ ، ثم دخلوا بغداد ، وساروا نحو الأنبار ، وارتفعوا نحو أذربيجان ، فانهزم أمامهم جيش الحجاج وعاد إلى البصرة [2] .

ولمّا قُتل صالح فى إحدى المعارك ، تولى أمر الصفرية من بعـده : شَبيبُ بن يزيد الشيبانى – ومعه زوجه غَزَالة وأمّه جهيزة ، فأرسـل إلـيهم الحجاج جيشاً قرب الحيرة ، انتصروا عليه عدة مرات ، ثم هـاجموا الكوفـة ودخلوها مدة واستطاع أن يدمر شبيب جيوشَ الحجاج ، ولم ينته الأمر إلاّ بعد أن سقط شبيب فى نهر (دجيل) فغرق فيه عام ٧٧هـ ، وبعـده اسـتطاع

---

[1] – انظر : الفرق بين الفرق ، ص ٩٠ ، والتطور والتجديد فى الشعر الأموى ، ص ٨٨.

[2] – الخوارج : تاريخهم وأدبهم ، على جفّال ، ص ٤٠ – ٤١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م .

الحجاج أن يقضى على غزالة زوجة شبيب التى دوّخته وتحدته ، وكذلك أمه جهيزة .

كما قام الصّفرية بعدة ثورات فى الشمال الإفريقى فى عهد الأمـويين فى عهد هشام بن عبد الملك (٧١ / ١٢٥هـ) ولم تتمكن جيوش الخلافـة أن تخمد هذه الثورات إلا فى عام ١٢٣هـ .

كما شهد العهد العباسى أيضاً بعض الثورات الخارجيـة الصـفرية ، ومن بينها ثورة الصفرية بناحية مكناسة فى المغرب الأقصى بقيادة عيسى بن أبى يزيد الذى تجمع حوله الصفرية ، والذى بقى أميراً على مكناسة نحواً من خمسة عشر عاماً ثم بويع من بعده لابنه إلاّ أنه دان بالولاية للخليفة العباسى[١].

وكل الصّفرية يقولون بمولاة عبد الله بن وهب الراسبىّ ، وحرقوص بن زهير وأتباعهم من المحكمة الأولى ، ويقولون بإمامة أبى بـلال مـرداس الخارجى بعدهم ، وبإمامة عِمران بن حِطان السدوسى بعد أبى بلال [٢] .

أما عن مبادئ الصفرية ، فمنها ما يلى [٣]:

١- لم يكفروا القعدة كما ذهب الأزارقة ماداموا موافقين لهم .
٢- ولم يكفروا مرتكب الكبيرة على الإطلاق بل ميّزوا بين الذنوب التى فيها حد واقع لا يسمّى أصحابها إلا باسم الذنب الموضـوع لـه ، كـزان ،

---

[١] – دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، ص ٧٤ .

[٢] – الفرق بين الفرق ، ص ٩١ .

[٣] – انظر نفسه ، ص ٩١ ، الملل والنحل ، جـ١ ، ص١٣٧ ، دراسة عن الفـرق فـى تاريخ المسلمين ، ص ٧٣ .

وسارق، وقاذف ، وقاتل عمد ، وليس صاحبه كافراً ولا مشركاً ، وكــلّ ذنب ليس فيه حد كترك الصلاة والصوم ، فمرتكب هذه الذنوب يعتبرونه كافراً [1] .

٣- لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ، ولا يرون أن دار مخالفيهم دار حرب .
٤- لم يجيزوا سبى الذريّة والنساء .
٥- يذهبون إلى أن الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان ، وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بإنكار النعم ، وكفر بإنكار الربوبية ، والبراءة براءتان : براءة من أهل الحدود سنة ، وبراءة من أهل الجحــود فريضة .
٦- لم يسقط الصفرية عقوبة الرجم ، كما فعل الأزارقة ، وأجــازوا التقيـــة كالنجدات ولكن في القول دون العمل .
٧- ينسب إلى بعضهم جواز تزويج المسلمات (أى الخارجيات) من كفــار قومهم (بقية المسلمين) فى دار التقية دون دار العلانية .

٤- الإباضية :

هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمى ، عاش فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، وهم أقرب فرقهم إلى الجماعة الإسلامية ، ومــذهبهم أكثر تسامحاً من كل فرق الخوارج ، ولهذا كتب لهذه الفرقة البقاء دون سائر الفرق الخارجية ، فيوجد فيهم حتى الآن جماعات فى المغرب العربى وعُمان،

[1] - الفرق بين الفرق ، ص ٩١ .

وذلك بسبب تسامحهم مع مخالفيهم وإنصافهم لهم ، فقد " كـانوا أميـل إلـى المسالمة فلا يقاتلون أحداً إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال [١] " .

وبناءً على مبدأ المسالمة عند الإباضية ، فقد اعتمدوا فى نشر مذهبهم، على إرسال الدعاة ليبشروا بهذا المذهب فى جميع النواحى التـى يتوقعـون حصول قبول مذهبهم فيها ، فقد كانت هذه أهـم وسـيلة لانتشـار المـذهب الإباضى فى كثير من الأقطار [٢] .

ولهذا نجد بعض الإباضية غاضبين ممن يعتبرهم فرقـة مـن فـرق الخوارج ويقولون إنما هى دعاية استغلتها الدولة الأموية لتنفير النـاس مـن الذين ينادون بعدم شرعية الحكم الأموى كما أن للإباضية العديد من المواقف ضد الخوارج [٣] . فابن إباض لم يخض فى حروب الخوارج التى كانت على أشدها آنذاك بل إنه اكتفى بأن دخل فى جدال عنيف وصراع فكرى مع كل من الأمويين والخوارج ، فأنكر على الأمويين ظلمهم الناس وعدم إقامتهم العـدل بينهم ، ورفض آراء الخوارج الأزارقة فى قولهم بشرك مخـالفيهم وشـرك مرتكب الكبيرة [٤] .

وربما تكون هذه المهادنة بين الإباضية والسلطة أيام عبد الله بن إباض الذى اتبع القعود ، ولكن بعد أن ظهر " عبد الله بن يحيى " الملقـب بطالـب الحق سنة ١٢٩هـ نجده يهاجم حضرموت ويستولى على اليمن ، وانضّم إليه

---

[١] – الخوارج فى الإسلام : عمر أبو النصر ، ص ٤٣ ، مكتبة المعارف – بيروت ١٩٦٥م

[٢] – الخوارج : ناصر عبد الله السّعوى ، ص ٨٤ .

[٣] – الخوارج : د. عامر النجار ، ص ١٦٥ .

[٤] – دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، ص ٧٥ .

أبو حمزة ، المختار بن عوف الأزدى الذى كان يذهب إلى مكة ليستثير الناس على مروان بن محمد .

استولى أبو حمزة على مكة بسهولة ، وأحكم سيطرته على الحجاز بعد أن دخل المدينة إثر معركة قُديد سنة ١٣٠هـ . وقد هاجمه جيش الشام ، فخرج للقائه فى وادى القرى حيث هُزم وهرب إلى مكة ، فتبعه الأمويون وقبضوا عليه وعلى أصحابه فصلبوهم . ثم عاد الجيش نحو اليمن فهُزم " طالب الحق " الذى قُتِل الكثير من أصحابه فى العام نفسه [١] . ولكنهم بعد ذلك استطاعوا أن يكونوا لهم دولة فى عمان استقلوا بها عن الدولة العباسية فى عهد أبى العباس السفاح ، وامتد نفوذهم إلى جزيرة زنجبار ، ولا تزال مبادئ الإباضية وأفكارهم هى السائدة فى عمان " [٢] ، كما انتشر مذهبهم فى المغرب العربى ، حيث وجدوا تقبلاً من البربر لمذهبهم ، وهم لا يزالون إلى يومنا هذا يتركزون فى تلك المناطق التى امتد إليها سلطانهم [٣] .

والإباضية كغيرها من الفرق ، لم تسلم من التفرق واختلاف الرأى ، فقد خرج فيهم جماعات متطرفة تميزوا بآراء خاصة عن جملة آراء الإباضية. ذكر البغدادى هذه الفرق فقال : " ثم افترقت الإباضية أربع فرق ، وهى : الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها .

واليزيدية منهم غلاة لقولهم بنسخ شريعة الإسلام فى آخر الزمان " [٤] .

---

[١] - الخوارج : على جَفّال ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

[٢] - دراسة عن الفرق ، ص ٩٠ .

[٣] - الخوارج : ناصر عبد الله السّعوى ، ص ٨٥ .

[٤] - الفرق بين الفرق ، ص ١٠٤ .

أما عن مبادئ الإباضية فمنها ما يلى : [1]

١- أنهم يلتقون مع كل الخوارج فى إنكار التحكيم وقولهم : إنّ الإمامة لا تختص بقريش ، وعدم إقرارهم بشرعية الحكم الأموى .

٢- يقر الإباضية بأن سلفهم هم المحكمة الأولى ، بل ويعتبرون أنفسهم امتداداً للمعارضة التى أطاحت بالخليفة عثمان ، واعترفوا بخلافة على واعتبروا طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم من البغاة الذين خرجوا على الخليفة الشرعى ، وأنكروا قبول علىّ للتحكيم كما أنكروا قتله لأهل النهروان .

٣- يرون أن كفار الأمة (غيرهم من المسلمين) بُرَآء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار ، وأن دارهم ليست دار حرب ، وأجازوا شهادتهم ، وحرّموا دماءهم فى السر ، واستحلوها فى العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض ، والذى استحلوه الخيل والسلاح ، فأما الذهب والفضة فيردونهما على أصحابهما عند الغنيمة .

٤- لا يجيزون قتل النساء والأطفال ولا سبيهم .

٥- لا يعتبرون الخروج فرضاً لازما ، بل أباحوا لأفراد جماعتهم العيش فى ظل حكم الطغاة تقية ، للضرورة ، ويذهبون إلى أن الشراء أو بذل النفس أمر طوعى إذا فرضه الخارجون على أنفسهم .

---

[1] - انظر ، الفرق بين الفرق ، ص ١٠٣ ، دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، ص ٨٥ ، والخوارج لعلى جفّال ، ص ٤٩ .

هذه بعض مبادئ الإباضية إلاّ أن كثيراً من الإباضية لم يأخذوا بها حتى أن كثيرا من كتّاب الفرق قدماء ومحدثين أقروا بأن الإباضية أكثر الفرق الخارجية اعتدالاً وأقربها تفكيرا وسلوكاً إلى أهل السنة ، أما عن بعض الآراء التي يبدو فيها التطرف ، فقد هَبَّ الإباضية المعاصرون إلى رد بعض هذه الآراء وتبرئة الإباضية منها ، أو إلى تفسيرها تفسيراً ينأى بهم عن التطرف والخروج [1] .

☉ ☉ ☉

وبعد أن تعرفنا على أشهر فرق الخوارج ، نحاول أن نتوقف أيضاً عند بعض الفظائع والشناعات التى ارتكبتها هذه الفرق لتصبح صورتهم جلية واضحة أمام المتلقى فلا يغتر بشعارات يرفعونها أو بشعرهم الذى يصورهم على غير الحقيقة . فمن هذه الفظائع :

١- مباركة قتل الإمام على بن أبى طالب واعتبار مقتله تقرباً إلى الله . يقول عمران بن حِطان وهو من أئمة الخوارج الصفرية مادحاً عبد الرحمن بن مُلجَمَ : [2]

يا ضربةً من منيبٍ ما أراد بها
إلاّ ليَبْلُغ منِ ذى العرش رِضْوانا

إنى لأذكرُهُ يَوْماً فأحْسَبُه
أوْفَى البَرِيّةِ عند الله ميزانا

---

[1] – انظر ، دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين ، ص ٨٧ وما بعدها .

[2] – الملل والنحل ، ص ١٢٠ .

حتى أن البغدادى ناقض هذه الأبيات واضعا عبد الرحمن بن مُلحم فى مكانته الأصلية فقال [1] :

يا ضَرْبَةً من كفور ما استفاد بهـا
إلاّ الجزاء بمـا يصـليه نيرانـا
إنِّى لألعنه دنيـا ، وألعـن مَـنْ
يَرْجو لـه أبـداً عَفْـوا وغُفْرانـا
ذاك الشقىُّ لأشقى النـاس كلِّهـمُ
أخفُّهم عنـد رب النـاس ميزانـا

٢- تكفير الصحابة ، وهو مبدأ أجمعت عليه معظم فرق الخوارج وبالـذات عثمان وعلى بعد التحكيم ، والحكمين ومعاوية . يقول أحد الأسرى مـن أتباع شبيب بن يزيد الشيبانى عندما وقف أمام الحجاج : اسمع منى بيتين أختتم بهما عملى وأنشأ : [2]

أبرا إلى الله من عمـرو وشـيعته
ومن على ومن أصـحاب صـفين
ومن معاويـة الطـاغى وشـيعته
لا بارك الله فى القـوم الملاعـين

٣- اتخاذهم القتل مسلكاً . وبدأ هذا منذ بداية خروجهم على الإمام علىّ ، فعند النهروان " لقوا عبد الله بن خبّاب ، وفى عنقه المصحف ومعـه امرأتـه

[1] - الفرق بين الفرق ، ص ٩٣ .
[2] - الخوارج : ناصر السعوى ، ص ١٣٣ .

وهى حامل ، فقالوا : إن هذا الذى فى عنقك يأمرنا بقتلك ؛ فقال لهم : أحيوا ما أحيا القرآن ، وأميتوا ما أمات القرآن ، قالوا : حدثنا عن أبيك ؛ قال : حدَّثنى أبى قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسى مؤمناً ويصبح كافراً فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ؛ قالوا فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قالوا فما تقول فى علىّ قبل التحكيم وفى عثمان ؟ فأثنى خيراً ، قالوا فما تقول فى الحكومة والتحكيم ؟ قال : أقول إن عليّا أعلم بكتاب الله منكم ، وأشد توقيا على دينه وأبعد بصيرة ؛ قالوا : إنك لست تتبع الهدى بل الرجالَ على أسمائها ، ثم قرّبوه إلى شاطئ البحر فذبحوه فامذقَّر دمه أى جرى مستقيماً على دقة [1] ، ثم قتلوا جاريته وقتلوا النساء والأطفال ، حتى جعلوا يُلقونهم فى قدور الأقط وهى تفور [2] .

و كان حمزة بن أكرك – الذى كان ظهوره فى أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩هـ – إذا قاتل قوماً وهزمهم أمر بإحراق أموالهم وعَقَرَ دوابهم ، وكان مع ذلك يقتل الأسرى من مخالفيهم [3] .

٤- قتل المسلمين وإجارة غير المسلمين ، حتى أنهم لما خرجوا إلى النهروان لقوا مُسلما ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى خيراً ، وقالوا احفظوا ذمَّة نبيكم [4] . وقصة واصل بن عطاء معروفة حيث جعل نفسه ورفقته

---

[1] – العقد الفريد ، جـ٢ ، ص ٣٨٤ – ٣٨٥ ، وانظر الفرق بين الفرق ، ص ٧٧ .

[2] – نفسه ، جـ٢ ، ص ٣٩٤ .

[3] – الفرق بين الفرق ، ص ٩٨ .

[4] – العقد الفريد ، جـ ٢ ، ٣٨٤.

مشركين عندما مرّ بأرض فيها خوارج خوفاً من أن يقتلوهم ؛ يحكى القاضى التنوخى : أن أبا حذيفة واصل بن عطاء ، خرج يريد سفراً فى رهـط مـن أصحابه فاعترضهم جيش من الخوارج ، فقال واصل لأصحابه لا ينطق منكم أحد ، ودعونى معهم ، فقالوا : نعم ، فقصدهم واصل ، وأتبعه أصحابه ، فلما قربوا بدأ الخوارج ليوقعوا بهم .

قال : كيف تستحلون هذا ، وما تدرون ما نحن ، ولأى شىء جئنا .

قالوا : نعم ، فما أنتم ؟

قال : قوم من المشركين ، جئناكم مستجيرين لنسمع كلام الله .

قال : فكفّوا عنهم ، وبدأ رجل يقرأ عليهم القرآن ، فلما أمسك .

قال له واصل : قد سمعنا كلام الله ، فأبلغنا مأمننا حتى ننظر فى الدين .

فقالوا : هذا واجب فسيروا .

قال : فسرنا ، والخوارج – والله – معنا برماحهم يسيروننا ويحموننا ، عـدة فراسخ حتى قربنا من بلدٍ لا سلطان لهم عليه .

فقالوا : ذاك مأمنكم ؟

فقال واصل : نعم ، فارجعوا عنا ، فانصرفوا [1] .

قصة أخرى يحكيها ابن عبد ربه فى رجل يدعى ابن عرباض يقول : " بينما ابن عرباض يمشى مُقدماً لطيّته ، إذ استقبلته الخوارج يحزّون النـاس

---

[1] نشوار المحاضرة : للقاضى المحسّن أبى على التنوخى ، جـ٢ ، ص ٢٠٥ -٢٠٦، وواصل بن عطاء استند إلى الآية : " وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه " (التوبة : ٩) ، وانظر الكامل للمبرد ، جـ٣ / ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ .

بسيوفهم ، فقال لهم : هل خرج إليكم فى اليهود شـــىء ؟ قـــالوا : لا ؛ فقـــال فمضوا راشدين وتركوه " [١] .

أى تحايل عليهم بأنه يهودى يبحث عن مجموعة من اليهود .

٥- الإيمان بالاستعراض وبالذات عند الأزارقة ، يقول الجاحظ عن قطرى بن الفُجاءة : " ... وكان يدين بالاستعراض والسِّباء ، وقتل الأطفال " [٢] .

والاستعراض : أن يعترض الناس يقتلهم إذا لم يبالوا مَنْ قتلوا [٣] .

٦- قتل أطفال مخالفيهم واعتبارهم مشركين إلحاقاً لهم بآبائهم الذين حكمـــوا عليهم بالشرك ، هذا رأى الأزارقة ، على أن أكثر الخـــوارج يـــرون أن أطفال المؤمنين فى الجنة وأطفال الكفار والمشركين مع آبائهم فى النار [٤] .

٧- سبى نساء المسلمين واعتبارهم رقيقاً يجوز نكاحهم ، ومنها أن نجدة بـــن عامر الحنفى بعث ابنه مع جيش إلى أهل القطيـــف ، فقتلـــوا رجـــالهم ، وسبوا نساءهم وقوّموها على أنفسهم – أى كل منهم تخّير امرأة حتى قبل القسمة – ، وقالوا إن صارت قيمتهن فى حصصنا فـــذاك ، وإلاّ رددنـــا بالفضل ، ونكحوهن قبل القسمة ، وأكلوا الغنيمة قبل القسمة [٥] .

٨- ومن شناعاتهم أيضاً نكاح المحارم كما تفعل فرقة الميمونية ، فكما روى عنهم البغدادى : " وزاد على القدرّية بضلالة اشتقها من دين المجـــوس ،

٢- العقد الفريد ، جـــ٢ ، ص ٤٦٥ .

١- البيان والتبيين ، جـــ٣ ، ص ٢٦٤ .

٢- الأمالى للقالى : جـــ١ ، ص ١١٩ ، ولسان العرب مادة : عَرَض .

٣- انظر الفرق بين الفرق ، ٦٢ ، ٦٣ ، مقالات الأشعرى ، ١ / ١٨٢ .

٤- الملل والنحل ، ص ١٢٣ ، الفرق ٨٨ .

وذلك أنه أباح نكاح بنات الأولاد من الأجداد ، وبنـات أولاد الأخـوة ، والأخوات ، وقال : إنما ذكر الله تعالى فى تحريم النساء بالنسب الأمهات والبنات والأخوات ، والعمّـات ، والخـالات ، وبنـات الأخ ، وبنـات الأخوات، ولم يذكر بنات البنات ، ولا بنـات البنـين ، ولا بنـات أولاد الأخوة ، ولا بنات أولاد الأخـوات [1] " ، فالميمونيـة علـى الإجمـال : " يجيزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الأخوة والأخوات ، وقـالوا : إن الله تعالى حرّم نكاح البنات ، وبنات الأخوة والأخوات ، ولـم يحـرم نكاح أولاد هؤلاء [2] " .

٩- تشبيه الله بخلقه – كما فعل أتباع شيبان بن سلمة الخارجى الذى خرج فى أيام أبى مسلم الخرسانى صاحب دولة بنى العباس ، وكان مع ذلك يقـول بتشبيه الله سبحانه وتعالى لخلقه فأكفره سائر الثعالبة مع أهل السنة فـى قوله بالتشبيه [3] .

١٠- إغفال سنة الرسول ﷺ ، فقد خالفت الخوارج ما عليه المسلمون مـن التمسك التام بسنة الرسول ﷺ ، فقد أظهروا التمسـك الشـديد بـالقرآن الكريم، وأغفلوا التمسك بالحديث النبوى ، قال شيخ الإسلام ابن تيميـة : " الخوارج الحرورية كانوا ينتحلون اتباع القرآن بآرائهم ، ويَدَعُون اتِّباع السنة التى زعموا أنها تخالف القرآن " [4] .

١- الفرق بين الفرق ، ص ٢٨١ .

٢- الملل والنحل ، ص ١٢٩ .

٣- الفرق بين الفرق ، ص ١٠٢ .

٤- الخوارج : ناصر السعدى ، ص ١٧٦ ، وانظر فتاوى ابن تيمية ، ١٢٨ / ٤٩١ .

١١- ومن بدعهم كما يقول الأشعرى : " أنهم أنكروا رجم الزانى المحصن وقالوا : إنه غير مشروع .

وقد احتجوا بما يلى :
أولاً : أنه ورد حد الزنا فى القرآن ولم يرد فيه الرجم ، فتخصيص الزانى المحصن بالرجم مخالف للقرآن فى زعمهم .
ثانياً : أنه ورد فى القرآن أنه على الأمَةَ إذا زنت نصف حد الحرّة ، قال تعالى : " فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب .." النساء /٢٥، والرجم لا يتجزأ ، فدل هذا على عدم مشروعيته [١] .
وهذا لأنهم أنكروا سنة الرسول ﷺ فى الحقيقة .

١٢- إنكار سورة يوسف " فيحكى عن العَجاردة أنهم ينكرون سورة يوسف من القرآن ويزعمون أنها قصة من القصص ، وقالوا : ولا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن " [٢] .
وقد قصر البغدادى هذا الرأى على الميمونية فقط من العجاردة ، وقال ومنكر بعض القرآن كمنكر كله [٣] .

١٣- إنكار صلاة الجمعة واعتبارها لا تغنى عن صلاة الظهر ، فصلاة الظهر فى عقيدتهم واجبة أما الجمعة فلا . يحكى التنوخى : " حدثنى أبو الحسن محمد بن غسّان بن عبد الجبار ، قال : رأيت بعُمان شيخاً من

١- مقالات الإسلاميين ، ١ / ١٧٣ .
٢- الملل والنحل ، ص ١٢٨ .
٣- الفرق بين الفرق ، ص ٢٨١ .

الخوارج، قد دخل في يوم جمعة من ناحية بلد الشراة ، إلى السوق بعُمان، وكانت طريق الناس إلى الجامع ، والناس يتعادون إلى حضور الجمعة، خوفاً من فوتها ، والخارجي ماشي الهُوينا في حاجته ، لا يراعي أمراً لجمعة، فإذا بشيخ قد جاء من ناحية الجامع ، فالتقيا ، فقال الشيخ للخارجي ، وهو لا يعرفه ، وقدّر أنه يريد الجامع : إلى أين تمضي يا شيخ ، وقد صلّى الناس وفاتتك الصلاة ؟ فقال الخارجي : يا أبله ، إنما فاتت من أدركها ، يريد أن التجميع معهم ، لا يسقط الفرض ، الذي هو الظهر ، وإذا هو جمّع معهم ترك الظهر ، فتفوته الصلاة الواجبة ، وهي الظهر ، ويصلّي مالا يجزى عنه في مذهبه من تكفيرهم .

قال : ولم يفهم الشيخ ما سمعه .

وقلت أنا للخارجي : أظنّك – أعزك الله – شارياً ؟

قال : فقال : نعم والحمد لله .

قال : وهم يستحبّون أن يقال لهم شراة ويأبون أن يقال لهم : خوارج [1] .

١٤- وأكثر فرق الخوارج أنكروا عذاب القبر ، ونفوه مطلقاً ، فهم لا يقولون به ، ولا يرون أن أحداً يعذب في قبره [2] .

١٥- بعضهم ينكر أن يكون محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالته آخر الرسالات ، فاليزيدية أتباع يزيد بن أبي أنيسة الخارجي ، وكان على رأى الإباضية من الخوارج ثم إنه خرج على قول جميع الأمة، لدعواه أن الله عزّ وجل يبعث رسولاً من العجم ويُنزل عليه كتاباً من

١- نشوار المحاضرة : جـ٨ ، ص ٦٩ .

٢- مقالات الإسلاميين ، جـ١ ، ٢٠٦ .

السماء وينسخ بشرعه شريعة محمد ﷺ ، وزعم أن أتبـاع ذلـك النبـي المنتظر هم الصابئون المذكورون فى القرآن ، فأما المسمَّون بالصابئة من أهل واسط وحرّان فما هم الصابئون المذكورون فى القرآن [1] .

☯ ☯ ☯

فهذه بعض الفظائع والجرائم والشناعات التى ارتكبها الخوارج ، وهى أمثلة بسيطة تدل على جرائمهم ومعتقداتهم الفاسدة ، فهل كان الخوارج بعـد هذا أتقياء ، يطرح الدكتور مصطفى الشكعة هذا السؤال ويجيب عليه ، يقول :

" ولكن هل كان الخوارج يتصفون بالتقوى حقيقة ؟ إذا كانت التقوى هى التعبد ليلاً والتبتل سحراً ، والحرب المقدسة نهاراً ، فلقد كانوا كذلك ، وأما إذا كانت التقوى هى العبادة والتعبد والجهاد وحسن معاملة الناس وحفظ دمائهم وأموالهم والبعد عن الفتنة وتجنيب الإسلام دماءً طاهرة سالت فى كل مكـان ، وروّت أرض العراق ونجد والحجاز ، فإنهم لم يكونوا كذلك ، لقد كرّموا ذكرى أبـى بكر وعمر وبرئوا من عثمان وكفّروا علياً والزبير وطلحة .

لقد حاولوا أن يبايعوا عبد الله بن الزبير على شريطة أن يحكم بكفـر أبيه (الزبير) ويكفّر كلاً من (علىّ) و(طلحة) ، وهو ما لم يقرّبه عاقل مسـلم يفهم دينه، وهم بالإضافة إلى ذلك كانت أسلحتهم شديدة الحماقة علـى رقـاب المسلمين ، إذا قابلوا مسلماً قتلوه وإن قابلوا ذمّياً حفظوا عليه حياتـه ، فـإذا سئلوا فى ذلك قالوا : لا نقتل الذمّى حتى نحفظ ذمّة نبينا [2] ، حتى لقد اضطر

١- الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٩ – ٢٨٠ ، وانظر الملل والنحل ، ص ١٣٦ .

٢- الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ، جـ١ (الشعر) ص ١٤٥ .

واصل بن عطاء – رأس المعتزلة – كما أسلفنا أن ينكر شخصيته ويذكر لهم أنه ذمى بعد أن صادفوه وخشى على خياته منهم .

وكانوا يخرجون على أئمة المسلمين لأتفه الأسباب ، فكانوا أصـــحاب غارات وثورات ، فكم سفكوا من دماء ، وكم قطعوا من سبيل ، وكم ضـــيعوا من حقوق ، وسعوا فى إضعاف المسلمين وتفريق كلمتهم ، حتى تكالب عليهم الأعداء من كل جانب .

☯ ☯ ☯

وبعد فهذه هى البيئة الفكرية والسياسية التـــى نشـــأت فيهـــا المـــرأة الخارجية – مدار بحثنا – فلابد أنها قد شربت من موردهم الآسن ، ورضعت أفكارهم الفاسدة ، ولهذا سنجدها مجاهدة مقاتلة ولكن ضد جموع المســـلمين ، وسنجدها إنسانة ولكن تحت علاقة خارجى إما أن تكـــون زوجـــة أو ابنـــة ، وسنجدها فصيحة بليغة يتقطر الشعر على لسانها ، ولكن فـــى الموضـــوعات التى تخص الخوارج فقط .

ومن هنا سنحاول أن يدور البحث حول المرأة الخارجية : مقاتلـــة ، وإنسانة ، وشاعرة ، فلعلنا نستطيع أن نجلى أموراً لم تكن معروفة أو نصحح أفكاراً كانت مغلوطة ، من خلال دراسة المرأة الخارجية إن شاء الله .

الفصل الأول

المـــرأة مقاتلـــة

من خلال دراستنا لشعر الخوارج وجدنا المرأة فى شعرهم تختلف عنها فى الأشعار الأخرى . فلم نرها عاشقة مثلما كانت عند عمر بن أبى ربيعة . ولم نرها أملاً وحلماً صعب المنال كما كانت عند الشعراء العذريين ولكننا وجدناها زوجاً وأماً وأختاً وابنة وفى هذا الفصل سنحاول أن نتوقف عند سمة خاصة تميزت بها المرأة الخارجية دون نساء عصرها ، وهى المرأة المقاتلة ، فالزوجة زوجة مقاتلة ، والأم أم مقاتلة ، والأخت أخت مقاتلة . والابنة كذلك . كل واحدة منهن تتسم بالشجاعة والاستبسال والدفاع عن المبدأ حتى ولو كلفها ذلك حياتها . بل هى تسعد بتقديم حياتها من أجل المبدأ والحق الذى تراه .

ولا نريد أن يأخذنا حسن الظن بعيداً فنظن أن المرأة الخارجية – والخوارج عموماً – كانت تقدم نفسها قرباناً لله تقف فى وجه أعدائه الحقيقيين. ولكن كل القتال وما يبدر معه من الشجاعة والاستبسال والعنف والقوة ، كان موجهاً إلى جسد الدولة الإسلامية ذاتها ممثلة فى حكامها ولم يسلم المسلمون عموماً من أذى الخوارج سواء بالقتل أو ترويع الأمن أو سلب الأموال ، وغير ذلك ؛ ما داموا لا يعتقدون ما يعتقده الخوارج . فكل قتال الخوارج للأسف الشديد كان موجهاً للداخل مما أوهن جسد الدولة الإسلامية فى كثير من الأحيان فانشغلت بهم عن نشر الدعوة الإسلامية .

المهم أن المرأة الخارجية كانت تتمتع بكل صفات القوة والشجاعة والإيمان العميق بالمبدأ والذود عن الحق . ولكن المبدأ الذى تعتقده والحق الذى تراه وهو فى الغالب خارج عن كل مقاييس الدين الحنيف .

والمرأة الخارجية كانت تشارك فى القتال مشاركة فعلية بحيث كانت لها صولات وجولات فيه مثل : (غزالة الشبيبة) و(أم حكيم) . أو كانت تحت

على القتال وتدفع إليه مثل (قَطام) التى هيأت الظروف لقتل علــى بــن أبــى طالب رضى الله عنه و(جمرة) زوجة عمران بن حطان التى غيرت معتقــده من مذهب أهل السنة إلى مذهب الخوارج .

والمرأة الخارجية فى كل الأحوال التى كانت تقابلها كانت شُــجاعة : شُجاعة وهى تطلب المشاركة فى القتال ، شجاعة وهى تقاتل ، شجاعة وهى تواجه المواقف الصعبة ، شجاعة وهى تواجه نبأ موت فلذة كبدها أو استشهاده كما ترى .

والشعر الخارجى قدم لنا صوراً عديدة لنساء خارجيات اســتطعن أن يسجلن أسماءهن بين صفحات التاريخ . أجبروا الجميع على احترامهن سواء من يتفق معهن أو يختلف .

فهذه امرأة خارجية تحاول أن تنفر مع زوجها لمشاركته فى القتــال ، على أن تكون قريبة منه تشد من عضده ولكنه يحاول أن يثنيها عن ذلك . لا لشىء إلا لأنها لا تستطيع أن تصنع مثلما يصنع الرجال من ركوب الخيل أو السير بسرعة مثلما يفعلون . يقول أحد الخوارج لامرأتــه وأرادت أن تنفــر معه[1] :

إن الحرورية الحَــرّى إذا ركبــوا
لا يستطيعُ لهــم أمثالُــك الطَّلَبَــا
إن يركبوا فرساً لا تركبى فرســاً
ولا تطيقى مــع الرجّالــة الخببــاً

---

[1] - شعر الخوارج : تحقيق د. إحسان عبــاس ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، والبيــان والتبيــين للجاحظ جــ٣ ، ص ٣١٦ .

فهذه امرأة كانت تطلب مرافقة زوجها فى القتال ولم تتمكن من ذلــك أما إذا تمكنت وأعلنت خروجها فهى لا تبالى ما سيفعل بها إن لاحقها القــوم وظفروا بها . يقول المبرد : " خرج قُرَيْبُ بن مُرَّة الأزْدى وزحاف الطائى . ويقال : أخرجوا معهم امرأة فظفرَ بها – يعنى زياد بن أبيه – فقتلها ثم عَرّاها فلم تخرج النساء بعدُ على زياد ، وكُنَّ إذا دُعِينَ إلى الخــروج قُلــن : لــولا التعرية لسارعنا " [١] .

أو وجدنا بعضهن من رميت بالفجور وعدم الشرف لخروجهـا مع رجال ربما من غير محارمها . يقول المبرد :" وكان الخوارج أيام ابن عامر أخرجوا معهم امرأتين ، يقال لإحداهما كُحَيْلة والأخرى قَطَام ، فجعل أصحابُ ابن عامر يُعَيِّرُونهم ويصيحون بهم : يا أصحاب كُحَيْلة وقطامِ : يُعرِّضون لهم بالفجور فتناديهم الخوارج بالدّفع والرّدع ويقول قائلهم : (ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لك به علم) " [٢] .

أو نجد بعضهن يتمتعن بشجاعة بالغة حتى عند مقاتلة أعتى الأعــداء وأشدهم جبروتاً وقسوة مثل الحجاج . يروى الجاحظ : " وقال الحجاج لامرأة من الخوارج والله لأعُدّنكم عَدّا ولأحْصُدَنكم حصداً . قالت : أنت تحصُدُ والله يزرع ، فانظر أين قدرة المخلوق من قُدرة الخالق " [٣] .

رواية أخرى يرويها المبرد تبين مدى جرأة المرأة الخارجية وتبــين أيضاً مدى تغلغل رجال الخوارج حتى فى بيت الحجاج يقــول : " وذكــرت الرُّواة أن الحجاج أتى بامرأة من الخوارج ، وبحضرته يزيد بن أبــى مُســلم

---

[١] – الكامل للمبرد ، جـ٣ ، ١١٧١ .

[٢] – نفسه : جـ٣ ، ١١٧٢ .

[٣] – البيان والتبيين للجاحظ ، جـ٢ ، ص ٣١٦ .

مولاه وكان يستتر برأى الخوارج ، فكلَّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد بن أبى مسلم : الأمير ويلك يكلِّمك ! فقالت بل الويل والله لـــك أيهـــا الفاسقُ الرِّدِّى ، والرِّدِّى عند الخوارج هو الذى يعلم الحقَ من قولهم ويكتمه"[١]
.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يصل إلـــى أن تُعــرِّض المـــرأة الخارجية نفسها للموت صلباً ، جاء فى أعلام النساء فى أخبار حمّادة الصوفية " عابدة من عابدات الخوارج بالشام كانت ذات رياســة ونفــوذ فـــى قومهـــا وفصاحة وبيان وقتلت صلبا " [٢] .

نماذج أخرى لنساء خارجيات . هذه المرأة التى لم تبخل على عقيدتها بابنها وفلذة كبدها وربما وحيدها . فتقدمه هبة لله فيما تعتقد . يروى المبرد فى معرض حديثه عن الخوارج : " وكان فى القوم كَهْمَسٌ وكان من أبرّ النـــاس بأمِّه ، فقال لها : يا أُمَّهْ ، لولا مكانك لخَرجْتُ ، فقالت : يا بُنىَّ قد وهبتك لله"[٣]

أو هذه المرأة التى تفرح بموت ابنها لأن الله كتب له الشهادة التى كان يتمناها . يروى الأصفهانى : " فقالت امرأة من الشراة وهى أم عمران قاتــلُ الحجاج بن باب وقتيلُه ترثى ابنها عمران :

الله أيّـــد عمرانـــا وطهـــرّه
وكان عمران يدعو الله فى السَّحرِ
يـــدعوه ســـرّا وإعلانـــاً ليرزقـــه
شـــهادة بيـــدى ملحـــادة غـــدر

---

[١] - الكامل للمبرد ، جـ٣ ، ١١٥٥ .
[٢] - أعلام النساء لكحالة : جـ١ / ٢٩٢ .
[٣] - الكامل للمبرد ، جـ٣ / ١١٨٢ .

ولى صحابتَه عــن حـــرٍّ ملحمـــةٍ

وشدَ عمرانُ كالضـــرغامة الـــذكر[1]

المهم أن نساء الخوارج كرجالهم " آمنوا بدعوتهم الدينية وبـــدعوتهم السياسية إيماناً يقف العقل عنده حائراً ، قست الدولة علـــيهم قســـوة شـــنيعة فاحتملوا القتل والصلب والتشهير وفقء العيون وأنـــواع العـــذاب صـــابرين مستبسلين " [2] . وكأنهم كما يقول شاعرهم فروة بن نوفل :

ما إن أبالى إذا أرواحنـــا قُبضـــت

مـــاذا فعلـــتم بأوصـــال وأبشـــار

تجرى المجرَّةُ والنّســـران بينهمـــا

والشمسُ والقمرُ السارى بمقـــدار

وقد علمتُ وخيـــر القـــول أنفعُـــهُ

أن السعيد الذى يَنجو مـــن النـــارِ

بقى بعد هذا أن نفصِّل القول فى حياة مجموعة من نساء الخوارج كان لهن الأثر البالغ فى مسيرة الدعوة الخارجية كُل منهن كانت لها صلة وثيقـــة بقائد أو أمير من قادة الخوارج وأمرائهم كما سنرى .

---

[1]- الأغانى : جـــ٨ / ٤ ، ٥ ، دار صعب ، بيروت .

[2] – د. عزيز فهمى : المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصـــر الأول ، تحقيـــق محمد قنديل البقلى ، ص ١٢٣ ، دار المعارف بمصر .

قطام بنت الشجنة التيمية

جاء عنها فى أعلام النساء " من ربات الحسن والجمـــال والفصـــاحة والبلاغة والنسك والزهد والدهاء والسياسة ، قتل أبوها وأخوها يوم النهروان وكانوا من الخوارج فرآها عبد الرحمن بن ملجم المرادى فالتبست بعقله وهام بها هياما عظيماً فخطبها " [1] ، ويؤكد الرواية أبو حنيفة الـدّينوْرى فيقــول : وكانت قطام ترى رأى الخوارج ، وقد كان علىّ قتل أباها وأخاها وعمَّها يوم النهر ، فقالت لابن ملجم : لا أتزوجك إلاّ على ثلاثة آلاف درهم ، وعبد وقينة ، وقتل علىّ بن أبى طالب : فأعطاها ذلك وأملكها " [2] .

فقطام كانت ترى رأى الخوارج وأهلها كانوا يذهبون إلى ما يــذهب إليه الخوارج أيضاً .

يقتل علىّ أباها وأخاها وعمها أو قتل علىّ من أهلها تيم الرباب عشرة – كما يروى الطبرى – فى معركة النهروان . ماذا نظن بامرأة كهــذه إلا أن يملأها الحقد الدفين لأعداء مذهبها وتغلب عليها نزعة الأخذ بالثأر مــن قتلــة أقرب الناس إليها من أهلها فلا تتورع عن استخدام حسنها وجمالها ودهائهــا كأسلحة فتاكة ضد أعدائها ، بل رأس أعدائها أمير المؤمنين على بــن أبــى طالب. فتطلب من خاطبها ثلاثة آلاف درهم وعبداً وقينة لحسنها وجمالهــا . وتطلب قتل على بن أبى طالب ثأراً لقتلة أهلها وللحقد الدفين الــذى يســيطر عليها .

---

[1] – أعلام النساء : رضا عمر كحالة ، جـ٤ / ٢٠٩ .

[2] – الأخبار الطوال ، ص ١٩٧ .

والخاطب لم يفكر فى الأمر كثيراً ولم يستصعب المهر لأن الظروف جمعتهما على طريق واحد وحول رغبة واحدة . فإن ابن ملجم لم يـأت إلـى الكوفة إلاّ من أجل قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقبل عبد الرحمن بن ملجم شروط المهر . وأصبح مهر قَطامِ الذى طلبته من عبد الرحمن بـن ملجم حديث العرب والعجم . يقول شاعر الخوارج ابن أبى مياس المـرادى . يسجل للتاريخ هذه الشروط التى يراها هو لا يطلبها إلاّ أصحاب السماحة ! :

ولم أر مهـراً سـاقه ذو سـماحة
كمهر قطامٍ من فصيح وأعجم
ثلاثـة آلافٍ وعبـدٍ وقينـةٍ
وضَربِ علـىٍّ بالحسـام المصـممٍ
فلا مهرَ أغلى من علىٍّ وإن غـلا
ولا فَتْك إلاّ دون فتـك ابـن ملجـم [1]

وما أقسى هذه الشروط ! وما أقسى قلب من نفذها ! ولكن ماذا فعلت قطام ؟ وهى التى شاركت فى قتل الإمام بالتخطيط والإمداد والمتابعة وللعجب أنها صنعت كل هذا وهى معتكفة فى المسجد الأعظم بالكوفة . لنسـير مـع الرواية من أولها كما أوردها محمد بن جرير الطبرى يقول : عن عبد الرحمن بن ملجم فى قصة قتل على بن أبى طالب : " فإنه رأى ذات يوم أصحاباً من تيم الرباب وكان علىٌّ قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتلاهم ولقى من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها قَطامِ ابنة الشجنة وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها التبست بعقله ونسى حاجته التى جاء لهـا

١- شعر الخوارج ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، الأخبار الطوال ، ص ٢١٤.

ثم خطبها فقالت : لا أتزوجك حتى تشفى لى قال وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علىّ بن أبى طالب قال هو مهر لك . فأما قتل على بن فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى قالت بل ألتمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنئك العيش معى وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . قال فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلاّ قتل علىّ فلك ما سألت قالت : إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك ؛ فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرباب يقال له وردان فكلمته فأجابها .

وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بجرة ... فجاءوا قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها لقد أجمع رأينا على قتل علىّ قالت فإذا أردتم ذلك فأتونى ثم عاد إليها ابن ملجم فى ليلة الجمعة التى قتل فى صبيحتها (علىّ) سنة ٤٠هـ فقال هذه الليلة التى واعدتُ فيها صاحبى أن يقتل كل واحد منا صاحبه فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم مقابل السدة التى يخرج منها على . فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف ، وهرب وردان حتى دخل منزله فدخل عليه واحد من بنى أبيه وهو ينزع الحرير عن صدره فقال ما هذا الحرير والسيف ؟ فأخبره بما كان وانصرف فجاء بسيفه فعلا به وردان حتى قتله . وخرج شبيب نحو أبواب كندة فى الغَلَس ... "[١] .

---

[١] - تاريخ الأمم والملوك للطبرى : جـ٣ / ٨٣ ، ٨٤ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت . لبنان ، وانظر أعلام النساء رضا عمر كحالة جـ٤ / ٢١٠ .

وهكذا خططت قطام وأشرفت على التنفيذ والعجيب أن عبد الـرحمن بن ملجم عندما أمسكوا به وعمدوا إلى قطع لسانه ، جزع . فسئل عن ذلك ، فقال : " أحببت أن لا يزال فمى بذكر الله رطبا " [1] .

أليس هذا مثاراً للتأمل . قطام تخطط وهى معتكفة فى المسجد وابـن ملجم يقدم قتل أمير المؤمنين على بن ابى طالب قرباناً لله فيتقـرب إلـى الله بانتهاك حرماته .

أليس خوارج الأمس أشبه بخوارج اليوم .

والأعجب من كل هذا أن يقف شاعرهم عِمران بن حطـان والـذى اشتهر بالعلم والتقوى ليمتدح هذا الفعل الشنيع ويمدح مرتكبيه مشيداً بالـدور الذى قام به عبد الرحمن بن ملجم . يقول :

لله درّ المـرادىّ الـذى سـفكت
كفاه مهجـة شـرّ الخلـق إنسـانا
أمسى عشـيَّة غشّـاه بضـربته
ممـا جنـاه مـن الآثـام عريانـا
يا ضربةً من تقىٍّ مـا أراد بهـا
إلاّ ليبلغ من ذى العـرش رضـوانا
إنـى لأذكـره حينـا فأحسـبه
أوفـى البريـة عنـد الله ميزانـا
أكرمْ بقوم بطونُ الطيـر قبـرهمُ
لم يخلطـوا ديـنهم بغيـاً وعـدوانا [2]

[1] - الكامل للمبرد ، جـ٣ / ٩٣١ .

٢- شعر الخوارج ، ص ١٤٧ .

وشاعر خارجى آخر يبارك قتل الإمام شامتاً . يقول ابن أبى ميـــاس المرادى :

ونحن ضربنا يالك الخير حيـدرا
أبـــا حســـن مأمومـــة فتفطَّـــرا

ونحن حللنا ملكــه مــن نظامــه
بضـــربة ســيف إذ عـــلا وتجبـــرا [1]

وهكذا نجد أن قطام قد شاركت فى جريمة قتل الإمام على وأن يـــديها ملطختان بدمه . مدفوعة إلى ذلك بإيمانها بمعتقدها وحقدها الدفين الذى امـــتلأ به صدرها نظراً لمقتل أبيها وأخيها وعمها .

ولكن ينبغى ألا نحمل قتل الإمام علىّ لقطام بمفردها ، أو لابن ملجـــم بمفرده أولهما معاً ولكن الأمر تم حسب خطة مدروسة للخوارج : يقول أحـــد الباحثين : " إن الباحث فى أمر اغتيال علىّ ، يظهر له أن هذا العمل لم يكـــن عملاً فردياً وثأراً لأقارب قطام الذين قتلوا يوم النهر ، بل كان عملاً مدروساً ومدبراً من قادة الخوارج ، الذين أرادوا بذلك أن يهدموا إمامة على بقتلـــه ... وأن ابن ملجم كان أداة تنفيذ الجريمة ليس غير " [2] .

فالخوارج عملوا على إزاحة على من طريقهم ، لأنه كان يشكل عقبة كأداء أمام طموحهم فى السيطرة على الدولة الإسلامية . وما قطام وابن ملجم إلاّ بداية لطريق طويل . مُلطخ بالدماء .

١- تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، جـ ٦ ، ص ٨٦ .

٢ - الخوارج فى العصر الأموى ! د. نايف معروف ، ص ١٠٥ ، دار الطليعة بيـــروت . لبنان . الطبعة الرابعة ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

كانت تؤمن بما آمنت به قطام . حتى أنها خرجت معها ولازمتهـــا . جاء فى أعلام النساء " كحيلة من ربات الفصاحة والبيان والنسك والزهد كانت تخرج مع الخوارج هى وقطام فجعل أصحاب ابن عامر يعيرونهم ويصيحون بهم يا أصحاب كحيلة وقطام يعرضون لهم بالفجور فتناديهم الخوارج بالـــدفع والردع "[1] .

زوجة حيان بن ظبيان السلمى

لم ترهب الخوارج هزيمة النهروان ولا الهزيمة فى معركة النخيلة ، ولكنهم سرعان ما أجمعوا على الالتفاف حول المستور بن علقة التيمى وأوكلوا أمرهم إليه .

ويولى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة الذى قرر أن يسير فـــى الناس سيرة حسنة ينظر فيها إلى نفسه وأن يتغاضى عن الخوارج فى بـــادئ الأمر . واستغل الخوارج إغضاء المغيرة بن شعبة عن تحركـــاتهم فأخـــذوا يجتمعون فى دار حيان بن ظبيان الذى كان يحرضهم بقوله :

خليلىَّ ما بى من عزاء ولا صـــبر
ولا إربة بعـــد المصـــابين بـــالنهر
سوى نهضات فى كتائـــب جمـــة
إلى الله ما تدعو وفى الله ما تـَقْـزى[2]

---

[1] – أعلام النساء : جـــ ٤ / ٢٣٧ .
٢– تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، جـــ ٦ ، ص ٨٧ .

وكان حيان من هؤلاء الذين قاتلوا علياً يوم النهروان ، وقد عفا عنه عَلِّيُ عندما أصابه جرح فى هذه الموقعة . فلما برئ خرج وجماعته من الخوارج إلى الرى وأقاموا بها حتى بلغهم قتل على . فحث حيان من معه من الخوارج على المسير إلى الكوفة ومناجزة أعدائهم . واتفقوا على أن يكون خروجهم فى غرة شعبان سنة ٤٣ هـ "[1] .

ولما علم المغيرة بأمر الخوارج شدد فى طلبهم وعول على القضاء عليهم قبل أن يشتد خطرهم . فأمر شرطته بإحاطة مكان اجتماعهم فى دار حيان بن ظبيان .

وهنا يبرز دور زوجة حيان بن ظبيان . فتنجح فى إخفاء السلاح . وادعى المؤتمرون أنهم مجتمعون لقراءة القرآن على حيان ؛ ولكن المغيرة سجن جماعة منهم حيان بن ظبيان . وضيق على جماعة أخرى حتى غادروا الكوفة وأخذوا ينتقلون فى البلاد الإسلامية [2] .

مما سبق يتضح دور المرأة الخارجية التى لم تكن على علم بما يدور حول فكر الجماعة وخططهم فحسب بل كانت على علم بجمع السلاح وإخفائه عند الضرورة ، وبهذا كانت سبباً فى حمايتهم من بطش الأمير والذى ربما يصل إلى قتلهم .

---

[1] - تاريخ الطبرى : جـ٦ / ١٠٠ .

[2] - نفسه : جـ٦ / ص ١٠٤ .

الشـــجّاء الخارجيـــة

امرأة ضربت المثل فى الجرأة والإقدام وعدم الرهبة ، جاء فى أعلام النساء : " جيء بها إلى زياد بن أبيه . فقال لها ما تقولين فى أمير المـــؤمنين معاوية ؟ قالت : ماذا أقول فى رجل أنت خطيئة من خطاياه ، فقـــال بعـــض جلسائه أيها الأمير : أحرقها بالنار . وقال بعضهم اقطع يديها ورجليها . وقال بعضهم : اسمُل عينيها ، فضحكت حتى استلقت وقالت : عليكم لعنة الله ، فقال لها زياد مم تضحكين ؟ فقالت : كان جلساء فرعون خيراً من هـــؤلاء . قـــال لها: ولم ؟ قالت : استشارهم فى موسى فقالوا : أرجه وأخاه . وهؤلاء يقولون: اقطع يديها ورجليها واقتلها . فضحك منها وخلى سبيلها " [1] .

أرأينا كيف أن هذه المرأة لم تخف من أمير كان معروفـــاً بجبروتـــه ودهائه. وكيف أن علمها وسرعة بديهتها أنقذاها من القتل ! .

---

[1] - أعلام النساء : جـــ٢ ، ص ٢٨٥ .

البَلْجَاء الخارجية

امرأة من بنى حرام بن يربوع ، من رهط سَجَاح التى كانت تنبــأت وكانت من مجتهدات الخوارج [1] رفضت أن تأخذ بالتقيّــة فتســتر مــذهبها . وواجهت عبيد الله بن زياد غير خائفة ، ولم تفكر فيما سيئول إليه مصيرها . ولم تأخذ برأى أبى بلال مرداس بن أدية أحد فرسان الخــوارج وأتقيــائهم . يقول المبرد : " وكان مرداس بن جُدَيْر أبو بلال تعظمّــه الخــوارج وكـــان مجتهداً ، كثير الصواب فى لفظه ، فلقيه عَيْلان بن خَرَشَة الضبِّى ، فقال : يا أبا بلال ، إنى سمعت البارحة الأمير عُبَيْد الله بن زياد يذكر البَلْجَاء ، وأحسبها ستؤخذ ، فمضى إليها أبو بلال ، فقال لها : إن الله قد وَسَّع على المؤمنين فى التقية فاستترى ، فإنّ هذا المسْرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك ، فقالت : إن يأخُذْنى فهو أشقى له ، فأما أنا فما أحُبّ أن يُعنّت إنسانٌ بســببى ، فوجَّــه إليها عُبَيْدُ الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى الســوق ، فمرَّ أبو بلال والناسُ مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البَلْجَاءُ ، فعرّج إليها فنظر ، ثم عَضّ على لِحْيته ، وقال لنفسه : لَهذِهِ أطيب نفساً عن بقية الــدنيا منك يا مرداس " [2] .

وهكذا تموت البلجاء شهيدة المذهب الخارجى .

---

[1] - أعلام النساء : جــ١ / ١٤١ .

[2] - الكامل للمبرد : جــ٣ / ١١٧٣ ، ١١٧٤ .

زوجة نافع بن الأزرق

ونافع بن الأزرق هو صاحب فرقة الأزارقة . " ولم تكن فى الخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد شوكة من الأزارقة ، وقد كفّر نافع وأصحابه عليّاً بن أبى طالب وجميع المسلمين ، وقال نافع إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم للصلاة ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم . وهم فى نظره مثل كفار العرب وعبدة الأوثان ، كما قال عن بلادهم إنها دار حرب . ويحل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم لأنهم كانوا يعتقدون أن أطفال مخالفيهم مشركون وأنهم مخلدون فى النار " [١] .

وكان نافع بن الأزرق يؤمن بالاستعراض ويقوم به . والاستعراض أن يعترض الناس بقتلهم ... لم يبالوا من قتلوا [٢] ، وكانت امرأة نافع بن الأزرق أكثر منه مغالاة وتشدداً حتى أنه إذا أراد أن يتراجع عن أفكاره المتطرفة . وقفت فى وجهه تحثه على التمسك بمذهبه وتؤكد له أنه على صواب بل توصيه بقتل المسلمين وتنكيلهم باعتبارهم من الكفار .

يقول الأصفهانى : " إن نافع بن الأزرق لمّا تفرّقت آراء الخوارج ومذاهبهم فى أصول مقالتهم أقام بسوق الأهواز وأعمالها لا يعترض الناس وقد كان متشككاً فى ذلك فقالت له امرأته : إن كنت قد كفرت بعد إيمانك وشككت فيه فدع نحلتك ودعوتك وإن كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم وأثخن فى النساء والصبيان كما قال نوح لا تذر على

---

١ - تاريخ الإسلام : الدكتور حسن إبراهيم حسن ، جـ١ ، ص ٢٩٠ ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤ .

٢ - الأمالى . للقالى : جـ١ / ١١٩ .

الأرض من الكافرين ديّارا ، فقبل قولها واستعرض الناس وبسط سيفه فقتـل الرجال والنساء والولدان وجعل يقول : إن هؤلاء إذا كبروا كانوا مثل آبـائهم وإذا وطئ بلداً فعل مثل هذا به إلى أن يجيبه أهله جمعا ويدخلوا فـى ملتـه فيرفع السيف ويضع الجباية فيجبى الخراج فعظم أمره واشتدت شوكته وفشـا عماله فى السواد فارتاع لذلك أهل البصرة " [1] .

ولم تكتف زوجة نافع بذلك ولكنها بعد قتل نافع لبسـت زى الرجـل وعرضت على قاتله المبارزة حتى تقتله أخذاً بثأر زوجها . يقول الأصفهانى : " وادعى قتل نافع بن الأزرق رجل من باهلة يقال له سلامة وتحدث بعد ذلك قال : كنت لمّا قتلته على برذون ورد فإذا أنا برجل ينادى وأنا واقـف فـى خمس بنى تميم فإذا به يعرض علىّ المبارزة فلما خرجـت إليـه فاختلفنـا ضربتين فضربته فصرعته ونزلت فأخذت رأسه وسلبته فإذا هى امرأته قـد رأتنى حين قتلت نافعا فخرجت لتثأر به " [2] .

وهكذا برز دور زوجة نافع بن الأزرق فى مؤازرة زوجها فى الدعوة وتثبيته على المذهب وملازمته فى الحروب ثمّ محاولة الأخذ بثأره .

---

[1] - الأغانى : جـ٦ ، ص ٣ .

[2] - نفسه جـ٦ ، ص ٤ .

أم حكيـــم

ذلك الصوت الفدائى الذى يعبر عن رغبة ملحة فى الموت والاستشهاد فى رضا وطمأنينة واستبشار بنعيم الله ، تتهافت على الموت تعجلا للقاء اليوم الموعود . كانت تحارب مع زوجها قطرى بن الفجاءة . جنباً إلى جنب وهى ترتجز هذا الرجز البالغ العنف والقوة .

أحمل رأسـاً قـد سـئمت حَمْلَــه
وقـــد مللـــتُ دَهْنَـــه وغســـلهُ
ألا فمتـــى يحمـــلُ عنـــىَّ ثِقْلَـــهُ [1]

فأم حكيم كانت تتمنى أن تموت على يدى فتى مـــن فتيـــان الجـــيش الأموى حتى تنال الشهادة وتتعجل لقـــاء الله . يقـــول عنهـــا الأصـــفهانى : " حدثت: أن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً وأحسنهم بدينهم تمسكا ... " [2] .

خطبها قبل زواجها من قطرى بن الفجاءة جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم وهى تقول :

ألا إنَّ وجهـــا حَسَّـــنَ الله خَلْقَـــهُ
لأجْدَرُ أن يُلْفى به الحســـنُ جامعـــاً
وأكْرِمُ هذا الجرْمَ عـــن أن ينالَـــهُ
تَـــوَرُّك فحـــل هَمُّـــهُ أن يجامعـــا [3]

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ١٢٨ .

[2] - الأغانى ، جـ٦ / ٧ ، دار صعب ، بيروت ، جمهرة رسائل العرب ، جـ٢ / ١٥٧

[3]- شعر الخوارج ، ص ١٢٨ .

فوجه أم حكيم الذى جمّله الله وحَّسنه من تمام حسنه وكماله ألا ينغمس فى ملذات الدنيا ، بل يجب أن يكون له هدف أسمى فى الحيـاة وأثمـن مـن الزواج والجماع . لذلك عندما تزوجت لم تتزوج إلا فارس فرسان الخـوارج قطرى بن الفجاءة . حتى يساعدها فى تحقيق هدفها . فالهدف عندهما واحـد والوسيلة واحدة أليس هو القائل مخاطباً نفسه : [1]

أقولُ لها وقـد طـارتْ شـعاعاً
من الأبطـال ويحـك لـن تراعـى
فإنـك لـو سـألتِ بقـاءَ يـومٍ
على الأجَلِ الذى لـكِ لـم تطـاعى
فصبراً فى مجال المـوت صـبراً
فمـا نيـلُ الخلـودِ بمسـتطاعِ
ولا ثـوبُ البقـاءِ بثـوب عـزٍّ
فيُطْوَى عن أخـى الخنـع اليـراعِ
سبيلُ المـوتِ غايـةُ كـلِّ حـيٍّ
فداعيـه لأهـل الأرض داعـى
ومـن لا يُغْتَـبطْ يَسـأم ويهـرمْ
وتُسْـلِمْهُ المنـونُ إلـى انقطـاعِ
ومـا للمـرءِ خيـرٌ مـن حيـاةٍ
إذا مـا عُـدَّ مـن سَـقَطِ المتـاعِ

[1] - شعر الخوارج ، ص ١٢٢ .

ويقول أيضاً متفقاً معها فى الغاية :

حتـــى متـــى تخطئنـــى الشـــهادة
والمـــوت فـــى أعناقنـــا قـــلادة
ليس الفـــرارُ فـــى الـــوغى بعـــادة
يا رب زدنـــى فـــى التقـــى عبـــادة
وفـــى الحيـــاة بعـــدها زهـــاده [1]

رجل كهذا فارس وشاعر وأمير المؤمنين كما أطلق عليه أتباعـــه لا ترفضه أم حكيم كما رفضت غيره ولكنها تزوجته وأصـــبح مبعـــث فخرهـــا وأصبحت هى مبعث وجوده وسر تعلقه بالحياة . يقول :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهدٌ
وفى العيش ما لم ألق أمَّ حكيم [2]

---

[1] – شعر الخوارج ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
[2] – نفسه ، ص ١٢٠ .

عميرة امرأة مجاشع البكرى

كانت ترى رأى زوجها مجاشع بالقعود عن الخوارج ثم أفسدها رجل حتى رأت رأى الخوارج فدعت زوجها إلى ذلك فأبى وأبت إلاّ أن تخرج فخرجت وأقامت فى عسكر الضحاك بن قيس سنين . فكتب إليها زوجها يبثها وجده ويسألها العودة . يقول : [1]

وجداً يصاحبنى لعلّ صبابة
منها تردّ خليلةً لخليلِ

فلئن قتلتِ ليقتلنَّ قتيلكم
فتيقنى أنى قتيلُ قتيلِ

ولكن (عميرة) التى وهبت نفسها للمذهب لم يؤثّر فيها كلام زوجها الذى آلمه فراقها ولكنها دلته على عنوانها الذى يوجد بين الأسنة والسيوف إذا أراد أن يعود هو إليها . أما حياة الدعة والترف والفراش الناعم فلم تعد تصلح لها فعليه أن يستبدلها بامرأة غيرها لو أراد ، تقول :

أبلغ مجاشعاً إن رجعت فإننى
بين الأسنةِ والسيوف مقيلى

أرجو السعادة لا أحدث ساعة
نفسى إذا ناجيتها بقفولِ

ووهبت خدرى والفراش لكاعب
فى الحىِّ ذات دمالج وحجول

---

[1] – معجم النساء الشاعرات . عبد الأمير مهنا ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، شعر الخوارج ، ص٢٣٦ ، دار الشروق .

من هذه الكاعب ذات الدمالج والحجول ؟ أتكون شابة صغيرة انشغل بها زوجها مجاشع فاغتاظت عميرة وفضلت الخروج ؟ ! من يدرى ؟.

المهم أن عميرة قد عادت إلى زوجها من جديد وقالت أبياتها المشهورة بعد أن تيقنت من فساد رأى الخوارج . تقول :

تركت رمحاً لينا مسه
وجئت رمحاً مسُّهُ قاتل

شتان هذا بدم سائل
وذاك منه عسلٌ سائلُ

مطعون ذا كم منه فى لذةٍ
وأمُّ مطعون بذا ثاكل

مُرُّوا بنا نرجع إلى ديننا
فكلُّ دينٍ غيره باطل

ومِلَّةُ الضحاكِ متروكةٌ
لا يجتبيها أحدٌ عاقل[1]

١- شعر الخوارج ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، دار الشروق .

أم علقمة الخارجية

امرأة خارجية حملت السيف في وجه المسلمين أو من تـراهم هـي كفاراً. وقبض عليها ، ومَثُلت أمام الحجاج فلم تأبه به ولا بمستشاريه . جـاء عنها في أعلام النساء : " من ربات الفصاحة والبلاغة والشجاعة وقوة الحجة أتى بها إلى الحجاج بن يوسف فقيل لها : وافقيه في المذهب فقد يظهر الشرك بالمكر . فقالت : قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . فقال لها : قـد خبطـت الناس بسيفك ياعدوة الله خبط عشواء . فقالت : لقد خفت الله خوفاً صيَّرك في عيني أصغر من ذباب وكانت منكسّة . فقال : ارفعي رأسك وانظري إلـيّ . فقالت : أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه . فقال : يا أهـل الشـام مـا تقولون في دم هذه ؟ قالوا : حلال . فقالت : لقد كان جلساء أخيـك فرعـون أرحم من جلسائك حيث استشارهم في أمر موسى فقـالوا : أرجـه وأخـاه . فقتلها " [١] .

امرأة تحمل السيف تقتل وتفتك ، تأبى أن تأخـذ بالتقيّـة – حتـى لا تعرّض نفسها للقتل – تقرع الحجة بحجة أقوى منها . لـم تهتـز أو تخـف والسيف قريب منها . أي نساء هؤلاء ومن الذي أوصلهن إلى هذا الحد مـن التمسك بهذه العقيدة ! أمر يحير ألباب الباحثين .

---

١ – أعلام النساء : عمر رضا كحالة ، جـ٣ / ٣٢٨ / ٣٢٩ .

جمرة زوجة عِمران بن حِطان

امرأة خارجية تقوم بالدعوة إلى مذهبها واجتذاب أنصار جدد وتثبيت الأقدام فى مجال الكفاح .

فزوجها عمران بن حطان " كان قبل تشريّه مولعاً بالعلم الحديث ، وقد روى عن عائشة وأبى موسى الأشعرى وابن عباس وابن عمر ، وكان حريصاً على تحرىّ الصدق فى رواية الحديث ، لذلك يرجّح أنه رحل إلى الحجاز لأن عائشة لم تفارق هذا البلد إلاّ فى حرب الجمل ، وكذلك ابن عمر الذى قضى حياته معتزلاً فى الحجاز أيضاً "[1] .

فعمران عاش حياته الأولى فقيهاً محدثاً على رأى الجماعة لا يميل إلى أى حزب سياسى .

ثم يحدث التغيير فى حياة عِمران فقد سمع أن جمرة ابنة عمه تعتقد رأى الخوارج وتدعو لمذهبهم فأصر أنه يتزوجها ليردها عن مذهب الشراية فذهبت به إلى رأيهم وأصبح من كبار دعاة المذهب الخارجى . وأصبح مغرماً بجمرة هذه وأصبحت ملهمته فى كثير من أشعاره . يقول مثلاً :

يا جمرُ إنى على ما كان من خلقى
مثن بخلات صدق كلّها فيك
الله يعلم أنى لم أقل كذباً
فيما علمت وإنى لا أزكيك[2]

---

[1] – الخوارج : تاريخهم وأدبهم : على حفّال ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .

٢– الأغانى : جـ ١٦ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وهكذا نجد امرأة من نساء الخوارج تؤثر فى عقل فقيه كبير كعمران بن حطان وتتسبب فى تغيير خط سير حياته يقول الأصفهانى فى عمران بن حطان : " شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعاتهم والمقدَّمين فى مذهبهم وكان من القعدة لأن عمره طال فضعف عن الحرب وحضورها فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه وكان قبل أن يفتن بالشراة مشتهراً بطلب العلم والحديث ، ثم بُلِيَ بذلك المذهب فضلَّ وهلك لعنه الله وقد أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم وروى عنه أصحاب الحديث "[1] .

أرأينا كيف غيرته هذه المرأة هل أثرت فيه بجمالها كما تذهب بعض المصادر ؟ أم ما الذى جعله يقبل هذا المذهب ويصبح مطارداً من قبل الحجاج متنقلاً متخفياً فى أحياء العرب ؟ هل كان نساء الخوارج يستخدمن جمالهم لجذب الأتباع ، وبخاصة من كان لهم ثقل ووزن علمى وسياسى ؟ ألم تفعلها أم حكيم مع قطرى بن الفجاءة من قبل ؟ إنها أسئلة تحتاج إلى إجابات .

المهم أن عمران أصبح مشرداً بين قبائل العرب يقول فى ذلك :

حللنا فى بنى كعب بن عمرو
وفى رعل وعامر عوثبان

وفى جرم وفى عمرو بن مر
وفى زيدٍ وحى بنى الغدان[2]

هذا حال عِمران بن حطان فماذا نقول فيه إلاّ أنه رجل أضلته امرأة .

وهذه جمرة التى أضافت كسبا جديداً لرصيد الخوارج .

---

[1] - الأغانى : جـ١٦ / ١٥٤ .

٢- نفس الصحيفة .

غزالة زوجة شبيب الخارجى

فارسة من فوارس الخوارج ، روّعت هى وزوجها شبيب الحجاج بن يوسف الثقفى فتحصن منها وأغلق عليه قصره عند دخولها الكوفة . تحدّت الحجاج وجنوده رغم كثرتهم ونذرت أن تصلى ركعتين فى مسجد الكوفة تقرأ فيهما البقرة وآل عمران وفعلت ، وصعدت المنبر وخطبت فى أشياعها ثم تولت إمامة الفرقة بعد موت زوجها .

أما شبيب زوجها فهو شبيب بن يزيد الشَيْبانى تحرك مع صالح بن مُسرِّح زعيم فرقة الصالحية . إحدى فرق الخوارج فى سنة ٧٦ هـ [١] .

جاء فى أعلام النساء فى أخبار غزالة : " من ربات الفروسية والشجاعة والفصاحة والبلاغة والنسك والزهد ، خرجت مع زوجها شبيب بن يزيد على عبد الملك بن مروان فى إمارة الحجاج بن يوسف بالعراق . فبعث إليه الحجاج خمسة قواد فقتلهم واحداً بعد واحدٍ . ثم خرج شبيب من الموصل يريد الكوفة . وخرج الحجاج من البصرة يريد الكوفة أيضاً . وطمع شبيب أن يلقاه قبل أن يصل إلى الكوفة فأقحم الحجاج خيله فدخل قبله فى سنة ٧٧هـ ، وتحصن الحجاج فى قصر الإمارة ودخل إليها شبيب وأمه جهيزة وزوجته غزالة عند الصباح ، وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلى فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران ، فأتوا الجامع سبعين رجلاً فصلّت فيه الغداة وخرجت من نذرها وهى تتمتع بالموضع العظيم من الشجاعة والفروسية . وقال بعضهم :

---

[١] - جمهرة رسائل العرب : أحمد زكى صفوت ، جـ٢ / ١٧٣ .

وفت غزالـــة نـــذْرها

يا رب لا تغفـــر لـــها [1]

ثم قابلت غزالة الحجاج فى حروب عديدة فهرب فى بعضها وتحصن فى البعض الآخر . يقول الأصفهانى : " إن غزالة الحرورية لمّا دخلت علـــى الحجاج هى وشبيب الكوفة تحصن منها وأغلق عليه قصره فكتب إليه عمران بن حطان وكان الحجاج لجَّ فى طلبه قال شامتاً فى الحجاج مسجلاً جبنه أمام غزالة :

أسدٌ علىَّ ، وفى الحروب نعامـــةٌ

ربداء تُجْفلُ مـــن صـــفير الصـــافرِ

هلا برزت إلى (غزالة) فى الوغى

بل كان قلبك فـــى جنـــاحَىْ طـــائر

صدعت غزالـــةُ قلبـــه بفـــوارس

تركـــت منـــابره كـــأمْسِ الـــدابر

ألقِ السلاح وخذ وشاحَىْ مُعْصِـــرٍ

واعمـــدْ لمنزلـــة الجبـــان الكـــافر [2]

ويقتل شبيبُ من جيش الحجاج أربعة وعشرين أميـــراً كلهـــم أمـــراء الجيوش [3] وعاث فى الأرض الفساد ، يقول الجاحظ مخبراً عن قـــوة شـــبيب وفروسته : " وأنشد أبو عمرو والشيبانى لرجلٍ من الخوارج يصف صـــيحة

---

[1] - أعلام النساء : جـ٤ ، ص ٧ ، تاريخ الطبرى : ٧ / ٢٤٤ ، جمهرة رسائل العـــرب جـ٢ / ٧٨م .

[2]- الأغانى : جـ ١٦ ، ص ١٥٧ ، شعر الخوارج ، ص ١٦٦ ، ١٦٧.

[3] - الملل والنحل للشهرستانى ، ص ١٢٨ .

شبيب بن يزيد بن نُعيم . قال أبو عبيدة وأبو الحسن : كان شبيب يصيح فـــى جنبات الجيش إذا أتاه ، فلا يلوى أحدٌ على أحد . وقال الشاعر فيه :

إنْ صاح يوماً حسِبت الصخرَ منحدراً

والريحَ عاصفةً والموجَ يلتطـــمُ [1]

ويترك شبيب الكوفة ويعود إليها مرة بعد مرة يروع الآمنين يســلب ويقتل ويسفك يقول البغدادى : " ثم إنّه كبس الكوفة لــيلاً ومعــه ألــف مــن الخوارج ومعه أمّه جهيزة وامرأته غزالة [2] فى مائتين من نساء الخوارج قــد اعتقلْنَ الرماح وتَقلدْنَ السيوف ، فلمّا كبس الكوفة ليلاً قصد المسجد الجــامع وقتل حرّاس المسجد المعتكفين فيه ونَصَّب امرأته غزالة على المنبــر حتـــى خطبت . وقال خُزَيْنة بن فاتك الأسدى فى ذلك :

أقامت غَزَالـــةُ سُـــوق الضـــرار

لأهـــل العـــراقين حَـــوْلا قَميطـــا

سَـــمَتْ للعـــراقين فـــى جيشـــها

فلاقـــى العراقـــانِ منهـــا أطيطـــا [3]

ويذكر عتبان بن وصيلة الشيبانى ما خاض شبيب وغزالة من معارك، وما كان فيها من انتصارات متتابعة على جيش الحجاج ووجه عتبان أبياته إلى عبد الملك قائلاً :

---

[1] – البيان والتبيين للجاحظ ، جـ١ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

[2] – الأصل فى نص البغدادى : ومعه أمه غزالة وامرأته جهيــزة هــذا بخـــلاف جميـــع المصادر ولهذا قد قمت بإصلاح النص .

٣– الفرق بين الفرق للبغدادى : ص ١١١ ، ١١٢ ، وقمط الشىء قمطاً ، شـــدّه بربـــاط ، يقال قمط المولود : ضم أعضاءه إلى جسده ، وقمط الأسير : جمع من ثقل الحمـــل ، والأطيط : أطيط البطن : صوت من الجوع ، وأطيط الظهر : صوت من ثقل الحمل ، والإبل : أنّت من تعب .

لعمري لقد نادى شبيبُ وصـــحبه
على الباب لــو أن الأميــر يجيــبُ
فــأبلغ أميــر المــؤمنين رســالة
وذو النصح لو تصغي إليــه قريــب
أتــذكر إذ دارت عليــك رماحنــا
بِمَسْــكِنَ والكلبــيُّ ثــم غريـــب
فلا صُلح ما دامت منابر أرضـــنا
يقوم عليهــا مــن ثقيــف خطيــبُ
فإنك إلاّ تُرْضِ بكــر بــن وائــل
يكن لــك يــومٌ بــالعراق عصــيبُ
فلا ضير إن كانت قريشُ عــدالنا
يصـــيبون منـــا مـــرةً ونصـــيبُ
فإن يكُ منهم كان مــروانُ وابنــه
وعمـــروُ ومـــنهم هاشـــمٌ وحبيـــب
فمنـــا سُـــوَيدٌ والبَطـــينُ وقعنـــب
ومنـــا أميـــر المـــؤمنين شـــبيبُ
غزالة ذات النـــذرِ منـــا حميـــدة
لها في ســـهام المســـلمين نصـــيب
ومناً سنانُ الموتِ وابــن عُــوَيْمرٍ
ومُـــرَّةُ فـــانظر أيَّ ذاك تعيـــبُ

فوارسنا من يلقهم يلقَ حَتفَـــهُ

ومن ينج منهم ينج وهو سليب [1]

فشبيب هو أمير المؤمنين وكل من يقف فى وجه فوارســه الشــجعان يلقى حتفه . وبهذا تصبح غزالة زوج أمير المؤمنين وهى التى وفت بنذرها .

ويهرب أهل الكوفة أمام شبيب وغزالة مرة بعد مرة ويحاول الحجاج استنفارهم عن طريق التهديد والوعيد . يقول فى رسالة بعث بها إليهم : " أما بعدُ ، فقد اعتدْتم عادة الأذلاَّء ، ووليتم الــدُّبُرَ يــوم الزحــف ، وذلــك دأبُ الكافرين، وإنى قد صفحت عنكم مرّة بعد مرة ، ومرة بعد مرة ، وإنى أقســم لكم بالله قسماً صادقاً : لئن عُدتم لذلك لأوقعنَّ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدو الذى تهربون منه فى بطون الأودية والشعاب ، وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال فخاف من له معقول على نفسه ولم يجعل عليها سبيلا ، وقد أعذر من أنذر .

وقد أسمعت لو ناديت حيّـــا

ولكن لا حياة لمن تنـــــادى

والسلام عليكم [2]

ويتجه شبيب وغزالة إلى المدائن وأراد أن يعود إلــى الكوفــة مــرة أخرى . فيرسل الحجاج رسالة إلى عبد الملك بن مروان مستنجداً يطلب المدد

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٠٠ ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٢هـــ ، ١٩٨٢م ، والبيان والتبيين ، جـــ ٣ / ٢٦٦ .

[2] – جمهرة رسائل العرب : أحمد زكى صفوت : جـــ٢ / ١٧٤ .

يقول فيها : " أما بعد فإنى أخبر أمير المؤمنين – أكرمه الله – أن شبيباً قد شارف المدائن ، وإنما يريد الكوفة ، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة فى كلِّها يقتلُ أمراءهم ويَفُلُّ جنودهم فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليَّ أهل الشام ، فيقاتلوا عدوّهم ، ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام " .

فبعث إليه عبد الملك سفيان بن الأبرد الكلبى فى أربعة آلاف ، وحبيب ابن عبد الرحمن الحكمى فى ألفين "[1] .

وظل شبيب يقاتلهم إلى أن زل حافر فرسه عن حرف السفينة فى نهر دُجَيل[2] ، فسقط فى الماء وكان هلاكه سنة ٧٧هـ[3] وهو يقول : " ذلك تقدير العزيز العليم "[4] .

ويبايع الشبيبية[5] غزالة على أن تتولى قيادتهم بعد موت شبيب ولكن القدر لم يمهلها . يقول البغدادى : " وبايع أصحاب شبيب فى الجانب الآخر من الدُجَيل غزالة ، وعقد سفيان بن الأبرد – قائد جيش الأمويين – وعبر مع جنده إلى أولئك الخوارج وقتل أكثرهم وقتل غزالة امرأة شبيب وأمه جهيزة ، وأسر الباقين من أتباع شبيب ، وأمر الغوّاصين بإخراج شبيب من الماء وأخذ رأسه ، وأنفذه مع الأسرى إلى الحجاج ... "[6] .

---

[1] – جمهرة رسائل العرب ، جـ٢ / ١٧٧ .

[2] – نهر بالأهواز .

[3] جمهرة رسائل العرب ، جـ٢ / ١٧٨ .

[4] – الملل والنحل ، ص ١٢٨ .

[5] – لانتسابهم إلى شبيب بن يزيد .

[6] – الفرق بين الفرق ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

ومن هنا نلاحظ ان الخوارج أجازوا إمامة المرأة يقول البغدادى : "إن شبيب وأتباعه أجازوا إمامة المرأة منهم إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم ، وزعموا أن غزالة امرأة شبيب كانت الإمام بعد قتل شبيب إلى أن قتلت ، واستدلوا على ذلك بأن شبيبا لمّا دخل الكوفة أقام غزالة على منبر الكوفة حتى خطبت " [1] .

ويعلق عبد القاهر البغدادى على إجازة خروج النساء معهم . ورميهم أم المؤمنين عائشة بالكفر لأنها خرجت إلى البصرة فى موقعة الجمل يقول : " يقال للشبيبة من الخوارج : أنكرتم على أم المؤمنين عائشة خروجها إلى البصرة مع جندها الذى كلُّ واحد منهم مَحْرم لها لأنها أمُّ جميع المؤمنين فى القرآن ، وزعمتم أنها كفرت بذلك وتلوتم عليها قول الله تعالى : " وقرْن فى بُيُوتكن " فهلا تلوتم هذه الآية على غزالة وهلا قلتم بكفرها وكفر من خرجن معها من نساء الخوارج إلى قتال جيوش الحجاج ، فإن أجزتم لهنَّ ذلك لأنه كان معهن أزواجُهُنَّ أو بنُوهُنَّ أو إخوانهن فقد كان مع عائشة أخوها عبد الرحمن، وابن أختها عبد الله بن الزبير ، وكل واحد منهما محرم لها ، وجميع المسلمين بنوها وكل واحدٍ محرم لها ، فهلا أجزتم لها ذلك ، على أن من أجاز منكم إمامة غزالة فإمامتها لائقة به وبدينه " [2] .

وهكذا تنتهى أسطورة غزالة المرأة التى دوخت الحجاج . فارسة ، خطيبة ، حافظة للقرآن ، ولكنها فى النهاية وجهت كل قوتها هى وزوجها ضد المسلمين فأوهنت عضد الدولة فليتها ما كانت .

---

[1] - الفرق بين الفرق ، ص ١١٠ ، ١١١ .

[2] - نفسه ، ص ١١٣ .

مريم الجعيداء زوجة أبى حمزة الشارى

امرأة فارسة مقاتلة شاركت مع زوجها فى مجزرة قديد سنة ١٣٠هـ، التى قتل فيها من أهل المدينة النفر الكثير . وكانت الجعيداء ترتجز فى المعركة بقولها :

أنا الجعيداء وبنت الأعلم
من سأل عن اسمى فاسمى مريم
بعت سوارى بسيف مخدم [١]

وإلى أبى حمزة الشارى زوج الجعيداء يرجع الفضل فى علو شأن الإباضية . فقد سار على رأس جيش إلى مكة فى موسم الحج سنة ١٢٩هـ ، " فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلاّ وقد طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رءوس الرماح وهم سبعمائة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مع مروان وآل مروان ، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك – وهو يومئذ على مكة والمدينة – وطلب منهم الهدنة فقالوا : نحن بحجنا أضن وعليه أشح ، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير " [٢] ، فوقفوا على حدة بين الناس بعرفات ثم تحيزوا عنهم ، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة

---

١ – شعر الخوارج ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، الأغانى : ٢٠ / ١١٠ ، والمخدم القاطع .

٢ – الكامل فى التاريخ لابن الأثير : جـ٤ / ٣٠٧ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

فدخلها الخارجى بغير قتال ، ثم هرب عبد الواحد بعد ذلك إلى المدينة . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

زار الحجيج عصَابة قــد خـــالفوا
دبـــن الإلــــه ففــرَّ عبـــدُ الواحـــد
ترك الحلائــل والإمــارة هاربــاً
ومضـــى يخـــبطُ كـــالبعير الشـــارد
لو كـــان والـــده تنصَّــل عرقـــه
لصفـــت مواردُه بعــــرق الوارد " [1]

وفى عام ١٣٠هـ يدخل أبو حمزة الخارجى المدينة ويهــرب نائبهــا عبد الواحد بن سليمان ، فيهرب أهل المدينة إلى قديد فينقض حمزة الشـــارى عليهم ويقتل منهم الكثير " وقدم المنهزمون المدينة فكانت المرأة تقيم النــوائح على حميمها ومعها النساء فما تبرح النساء حتى تأتيهن الأخبار عن رجـــالهن فيخرجن امرأة امرأة كل واحدة منهن تذهب لقتل رجلها فلا تبقى عندها امرأة لكثرة من قتل ، وقيل : كان عدة القتلى سبعمائة " [2] .

وهكذا امتلأت ساحة قديد بجثث القتلى من أنصـــار الحكومـــة ومـــن الخوارج أيضاً ، وتركت آثاراً حزينة فى الشعر فكانت النائحات ينحن بقولهن:

---

[1] – البداية والنهاية لابن كثير ، جـ٥ / ٥٠٨ ، دار الغد ، الطبعة الأولـى ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .

[2] – الكامل لابن الأثير ، جـ٤ / ٣١٤ .

مـــــا للزمـــــــان وماليـــــه
أفنـــــت قديـــــدٌ حاليـــــةْ

فلأبكـــــــين ســــــــريرةً
ولأبكـــــــين علانيـــــــــةْ

ولأبكـــــين إذا خلـــــــوت
مـــــع الكــــــلاب العاويـــــةْ

ولأثنـــــينَّ علــــــى قديــــــد
بســـــــــوء ما أبلانيـــــــــه [1]

ورثى الخوارج أيضاً قتلاهم وبكوهم بكاءً حاراً كقــول أبـــى حمــزة الشارى بعد المعركة :

يا لهف نفسى ولهف غير نافعــة
علـــى فـــوارس بالبطحـــاء أنجـــاد

عمرو وعمرو وعبـــد الله بينهمـــا
وابناهما خامس والحارث الســــــاد [2]

وتطل بوادر الجيش الأموى بقيادة عبد الملك بن محمـــد بـــن عطيـــة ويهرب أبو حمزة مع ثلاثين رجلاً إلى المدينة ، ومنها إلى مكة ، وفى مكـــة يقتل أبو حمزة على يد رجال ابن عطية وتقتل معه زوجته مريم الجعيداء [3] .

وهكذا نجد الجعيداء الخارجية تحمل السيف تاركة ما يتمتع به النساء فى الدنيا وتقف إلى جانب زوجها تحارب معه وتُقتل معه .

---

[1] – الأغانى : ٢٠ / ١٠٢ .

[2] – الأغانى : ٢٠ / ١٠٠ .

[3] – انظر : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ٣١٥ ، البداية والنهاية ، جـــ٥ / ٣٠٩ ، ومـــا بعدها ، السياسة والأدب الأموى ، ص ١١٥ وما بعدها .

ليلى بنت طريف التغلبيّة

ذكرت باسم ليلى بنت طريف والفارعة بنت طريف . جاء عنها فى أعلام النساء : " شاعرة من شواعر العرب فى الدولة العباسية كان أخوها الوليد بن طريف الشيبانى رأس الخوارج وأشدهم بأساً وصولة وأشجعهم فاشتدت شوكته وطالت أيامه فوجه إليه هارون الرشيد يزيد بن مزيد الشيبانى فجعل يخاتله ويماكره ولحق بالوليد . فخرج الوليد إليه وهو يقول :

أنا الوليد بن طريف الشارى

قسورةَ لا يصطلى بنارى

جوركمو أخرجنى من دارى

فأوقع يزيد السيف فى أصحاب الوليد وأخذ رأسه [1] .

وهنا يبرز دور ليلى بنت طريف حيث " صبحتهم مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس فعرفت . فقال يزيد : دعوها ، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قطاة فرسها ثم قال : اعزبى عزب الله عليك فقد فضحت العشيرة فاستحيت وانصرفت وهى تقول ترثى الوليد :

بتَلِّ نُبَاثا رسْم قبرٍ كأنه

على علم فوق الجبال منيف [2]

ثم تسلك ليلى فى رثائها لأخيها الوليد مسلك الخنساء من أخويها فترثيه بجملة قصائد منها :

---

[1] – أعلام النساء : جـ٥ / ٣١٨ وما بعدها .

[2] – الكامل لابن الأثير : جـ٥ / ٩٧ ، ٩٨ .

ذكـــــرت الوليــــــد وأيامــــــه
إذ الأرض مــــن شخصــــه بلْقــــع

فأقبلـــت أطلبـــه فـــى الســـماء
كمـــا يبتغـــى أنفُـــهُ الأجـــــدع [1]

وهكذا وجدنا ليلى بنت طريف تحمل عدة الحرب وتركب الفرس لتثأر لقتل أخيها الوليد بن طريف الشارى .

وهكذا برز دور المرأة الخارجية فى حروب الخــوارج فــى أجلــى صوره ، حيث ظهرت كمقاتلة عنيدة أو محفزة على القتال ودافعة إليــه ، أو مدفوعة للثأر من قتلة موتاها .

[1] - ضحى الإسلام : أحمد أمين ، جـ٣ / ٣٤٧ .

الفصل الثانى

المــرأة إنســانة

لم يكن أنموذج المرأة المقاتلة المجاهدة هو النموذج الوحيـد لنسـاء الخوارج . فإن ذكر التاريخ أم حكيم الفارسة الجميلة زوجة قطرى بن الفجاءة التى كانت تحارب مع زوجها جنبا إلى جنـب ، أو غزالـة زوجـة شـبيب الخارجى التى روّعت الحجاج عند دخولها هى وزوجها الكوفة فتحصن منهـا وأغلق عليه قصره [١] . أو الدلجاء التى قتلت وصلبت وتقطعت أعضاؤها مما مرّ ذكره فى الفصل السابق . فقد ذكر التاريخ أسماءً أخرى من نساء الخوارج لا علاقة لهن بالحرب والجهاد على الإطلاق . بل عشن كأى امرأة تتدلل على زوجها وتطلب منه الهدايا أو ترفض الرجل عندما يتقدم لخطبتها أو تشـارك زوجها أحزانه وأفراحه . المهم أنها تتصرف كإنسانة يغلب عليها العديد مـن النوازع البشرية الإيجابية والسلبية .

ومن هنا وجدنا نساءً ارتبطن برجال من الخوارج ورد ذكرهن فـى مجال التعلق بالدنيا ومتاعها أمثال : هند وأم الغمر ، وأم عاصـم وسـليمى وغيرهن . حتى جمرة الخارجية الأصيلة والتى شجعت زوجها عمـران بـن حطان على الخروج سرعان ما تحولت إلـى امـرأة تبحـث عـن الأمـان والاستقرار فنراها تحاول أن تثنى زوجها عن الخروج فى أكثر من موقـع . متعلقة بأهداب الحياة بعد أن ملّت التنقل والترحال بين رجال لا تعرف مـنهم إلاّ الموت المخيّم على أجوائهم ، والبكاء الحار على قتلاهم فأرادت أن تـنعم بالحياة فيما تبقى لهما من عمر .

المهم أن حياة نساء الخوارج لم تكن على وتيرة واحدة ، هى المـرأة المقاتلة . بل كثيرا ما تظهر المرأة الخارجية نوازع إنسانية كثيرة مما يجعلنا

---

[١] - فى الشعر الإسلامى والأموى : د. عبد القادر القط ، ص ٣٧٩ .

نتعجب أن تكون هذه المرأة لها علاقة بالخوارج . فكما يقول الدكتور عبد القادر القط " على أن للمرأة صورة أخرى فى شعر الخوارج تشبه صورتها عند بعض سابقيهم من الشعراء حين كانت تلوم الزوجة زوجها لكرمه وإتلافه، كالذى نراه كثيراً فى شعر حاتم الطائى مخاطبا زوجته ماوية ، أو حين كانت الابنة تلوم أباها لرحيله الطويل الذى تخشى أن يتركها بلا أب ولا عائل ، فشعراء الخوارج كثيراً ما يشيرون إلى محاولة نسائهم أن يثنين عزمهم على الحرب ، ويردون عليهم بالحديث عن التفانى فى سبيل الإيمان والشهادة والتهوين من أمر الدنيا ما دام مآل الإنسان فيها إلى الموت " [1] .

هذه النزعات الإنسانية عند نساء الخوارج هى ما سنحاول أن نوضحه فى هذا الفصل ، الذى يتعلق بالجوانب الإنسانية فى حياة المرأة والتى تدور فى إطار علاقتها بالرجل الخارجى .

فإذا ما نظرنا إلى صورة المرأة فى شعر الخوارج وجدناها تخرج عن إطار صورتها التقليدية فى الشعر العربى فلم تكن من نساء امرئ القيس اللائى يفتتح بهن قصائده ، ولم تكن من نساء عمر بن أبى ربيعة الشاعر اللاهى الذى يبحث عن مغامرات غرامية معها ، ولم تكن ليلى ولبنى وبثينه وفوز عند العذريين المتيمين ولم تكن من نساء بشار بن برد اللائى يصفهن وصفاً ماديا على الأغلب ولم تكن من غلاميات أبى نواس . ولكن المرأة فى شعر الخوارج امرأة واقعية لا تخرج عن كونها زوجة أو ابنة علاقتها بالرجل محكومة بالقيود الدينية التى هى الأساس الأول فى حياة الخوارج . فالمرأة فى شعر الخوارج لم تكن مجالاً للنسيب والغزل على الإطلاق . فالشاعر

---

[1] – فى الشعر الإسلامى والأموى ، ص ٣٨٠ .

الخارجى لم يكن شاعراً محترفاً أو متفرغاً لقول الشعر . بل هو يجرى من مكان لآخر حسب مسرح الأحداث ويجرى معه الشعر على لسانه . حتى لو تفرغ لحظة لقول الشعر ما كان ليشغل نفسه بالحديث عن محاسن المرأة ومفاتنها مما قد يعد فى عرفه من المحرمات . أما الزوجة أو الابنة فهما جزء من كيان الرجل ووجوده شاعراً كان أو غير شاعر ولهذا وجدنا لمحات كثيرة تصور فى شعر الخوارج يصور المرأة الزوجة وتصور المرأة الابنة ، وما يدور حولهن من نوازع إنسانية سنحاول أن نجليها بادئين بالمرأة الزوجة .

فنلاحظ أن المرأة فى البداية كانت تمثل حلماً وأملاً بالنسبة للرجل فنجد قطرى بن الفجاءة هذا الفارس المغوار والقائد الخارجى المحنك ، شاعر الخوارج وخطيبهم وأميرهم . لم تمنعه إمارته للخوارج ولا هيبته بين رجاله أن يخفق قلبه لحب أم حكيم ، فهو كأى إنسان لم يستطع أن يتحكم فى مشاعره، بل لا ينكر أنه حاول أن يسلوها وأن ينهى أمنياته فيها ولكنه لم يستطع ؛ فالقلب أبى إلا حبها ، حتى أنها سيطرت على عقله وفكره ، فإذا ما اختلى بنفسه هام بها حتى صارت حلما له يتمنى تحقيقه .

ثم يعلل أسباب تعلقه بها كعادة الشعراء الغزّالين فيشير إلى أنها منعمة أى يظهر عليها أثر النعمة ، حلوة الدلال ، معتدلة القوام ممتلئة كهريرة الأعشى ، يضاف إلى هذا الجمال الشامل حسن أخلاق . ومن هنا وجدنا المرأة الخارجية أصبحت حلماً حتى عند قادة الخوارج . يقول قطرى بن الفجاءة مصوراً هذا الحلم : [1]

[1] - شعر الخوارج ، ص ١٠٨ .

إذا قُلْتُ تسلو النفسُ أو تنتهى المنـــى

أبـــى القلـــبُ إلاّ حـــبَّ أم حكـــيم

منعمـــةٌ صـــفراءُ حلـــو دلالهـــا

أبيـــتُ بهـــا بعـــد الهـــدوّ أهـــيمُ

قَطوفُ الخطى محطوطةُ المتن زانها

مع الحسن خَلقٌ فى الجمـــال عمـــيم

ونجد قطرى بن الفجاء . يكرث هذا الحلم فى مقدمة قصيدة أخـــرى . موضحا أنه إذا لم يلق أم حيكم سيزهد فى العيش والحياة ، فأم حكيم لم تكـــن امرأة عادية ككل النساء بل هى مصدر قوته التى منها تســـتمد ولهـــذا نجـــده يضعها فى ذاكرته على الدوام حتى وهو فى أحلك المعارك . يقول : [١]

لعَمرُك إنـــى فـــى الحيـــاة لزاهـــدٌ

وفى العيش ما لـــم ألـــق أمّ حكـــيم

من الخفرات البيض لم تـــر مثلهـــا

شـــفاءً لـــذى بـــثٌ ولا لســـقيم

لعمرك إنـــى يـــوم ألطـــم وجههـــا

علـــى نائبـــات الـــدّهر جَـــدُّ لئـــيمِ

ولو شهدتنى يـــومَ دولاب أبصـــرت

طعانَ فتىً فى الحرب غيـــرَ ذمـــيم

---

١ - شعر الخوارج ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

فلـــو شـــــهدتنا يـــوم ذاك وخيلنا
تبيح من الكفـــارِ كـــلَّ حـــريم [1]
رأت فتيــــةً بــــاعوا الإلــــه نفوسَهم
بجنات عَـــدْنٍ عنــــده ونعـــــيم

يعلق الدكتور القط على هذه الأبيات يقول : " لذلك يأخذ الحب صورة مختلفة فى شعر هؤلاء الشعراء ، فحين يشير الشاعر إلى المرأة فـــى مطلـــع إحدى مقطوعاته ، لا يلبث أن يقرن بين حبه إياها وحبه للشهادة فـــى ســـبيل الإيمان والمبدأ إلا إدلالاً لفروسيته المفردة على طريقة الشعراء الجاهلين فـــى هذا المقام ولكن تصويراً لوجه آخر من الحب ينصرف فيه الخارجى ورفاقـــه عن أهواء الدنيا ومتع النفس وإن كانت جميلةً محببةً " [2] .

وكأن الشاعر هنا قد جسّد هذه المرأة فى ذاكرته أثناء المعركة حتـــى إذا ما استشهد استشهد معه أيضاً حلمه الجميل .

والمرأة الخارجية ليست كأى إمرأة عادية بل لابـــد أن تتـــوافر فيهـــا سمات ومحاسن تشد إليها الرجل ، فأم حكيم التى أسرت لب قطرى بن الفجاءة كانت فارسة تجمع إلى جمال خَلْقها حسن خُلقها كمـــا ذكـــر قطـــرى آنفـــاً . فالأخلاق الحميدة كثيراً ما كانت تجذب الرجل إلى المرأة مثلما وضـــح لنـــا عمران بن حطان وهو يخاطب جمرة ابنة عمه والتى تزوجها . يقول : [3]

---

[1] – يقصد بالكفار هنا : المسلمين الذين يحاربهم ممن ليسوا على مذهبه .
[2] – فى الشعر الإسلامى والأموى ، ص ٣٧٩ .
[3] – شعر الخوارج ، ص ١٥٠ .

يا جمرَ إني على ما كان من خُلُقـــي

مثن بخـــلاتٍ صـــدقٍ كلهـــا فيـــكِ

الله يعلـــم أنـــــي لـــم أقـــل كـــذبا

فيمـــا علمـــتُ وأنـــــي لا أزكيـــكِ

فعمران بن حطان المعروف بعبادته ونسكه يشهد لجمرة أنهـــا تتســـم بخلال لا تقل عن أخلاقه وصفاته .

والمرأة الخارجية لم تكن امرأة مغلوبة على أمرها بل كانـــت تتمتـــع بقدر كبير من الحرية . لدرجة أنها كانت تدقق فيمن ستتزوجه وتضع الشروط التى تراها . بل وأكثر من ذلك كانت تطلب أن تكون عصمتها فى يـــدها ولا ترضخ فى ذلك لرأى الغير حتى ولو كان أباها . يحكى لنا عمر كحالة فيمـــا نقله عن الأغانى قصة عائشة بنت يحيى بن يعمر الخارجية [1] والذى تتضـــح فيها حرية المرأة الخارجية فى اختيار زوجها يقول عنها : " من ربات الرأى وا.. قل خطبها محمد بن بشير لمّا قدم البصرة وأبت أن تتزوجه إلاّ بعد أن يقيم معها بالبصرة ويترك الحجاز ويكون أمرها فى الفرقة إليها فأبى أن يفعل ذلك وقال :

أرق الحـــــزين وعـــــاده ســـــهره

لطـــوارق الهـــمّ الـــذى يـــرده

وذكـــرت مـــن لانـــت لـــه كبـــدى

فـــأبى فلـــيس تلـــين لـــى كبـــده

---

[1] أعلام النساء ، جـ٣ ، ص ١٩٥ وما بعدها .

وأبـــى فلـــيس بنـــازل بلـــدى

أبـــدا ولـــيس بمصـــلحى بلـــده

فصـــدعت حـــين أبـــى مودتـــه

صـــدع الزجاجـــة دائـــم أبـــده

وعرفـــت أن الطيـــر قـــد صـــدقت

يـــوم الكدانـــة شـــرٍّ مـــا تعـــده

فاصـــبر فـــإن لكـــل ذى أجـــلٍ

يومـــا يجـــىء فينقضـــى عـــدده

مـــاذا تعاتـــب مـــن زمانـــك إن

ظعن الحبيـب وحـلَّ بـى كمـده

وخاطب أباها يحيى بن يعمر فقال : " إنها امرأة برزة عاقلة ولا يفتات على مثلها بأمرها وما عنك من رغبة ، ولكنها امرأة فى خلقها شدّة ولها غيرة وقد بلغنى أن لك زوجتين وما أراها تصبر على أن تكون ثالثة لهما فانظر فى أمرك وشاور فيه ، فأما إن أقمت بالبصرة معها فعفت لك عن صاحبتيك إذ لا مجاورة بينهما وبينها ولا عشرةِ ، وإن شئت مفارقتهما وإخراجهـا معـك ، فصار إلى رحله مغموماً .

وشاور ابن عم له يقال له وارد بن عمر فى ذلك فقال لـه : إن فـى يحيى بن يعمر الرغبة لثروته وكثرة ماله ، وما ذكر من جمال ابنته وما تحب أن تفارق زوجتيك – وكانت إحداهما ابنة عمه والأخرى من أشجع – فتقـيم معها السنة بالبصرة وتمضى بخير فإن رغبت فيها تمسكت بها وأقمت بمكانك

وإن رغبت فى العود إلى بلدك كتبت إلينا فجئناك حتى تنصرف معنا ، ففكر ليلته وأجمع حتى غدا عازماً على الرجوع إلى الحجاز " .

فمن هنا نلاحظ أن عائشة بنت يحيى الخارجية طلبت ممن يريد خطبتها والتزوج بها أن يطلِّق امرأتيه أولاً ، ويقيم معها بالبصرة وتكون العصمة بيدها .

ولم يتوقف الأمر عند وضع الشروط ، بل يتعداها إلى رفض الزواج من رجل معين . يقول الأعرج المعنى – الشاعر الخارجى – فى امرأة رفضت الزواج منه [1] :

تشكىِّ إلى جاراتها وتعيبنى
فقالت معاذ الله أنكح ذا الرجلِ

فكم من صحيح لو يوازن بيننا
لكنّا سواءً أو لمال به حملى

فالأعرج يشير إلى أن هذه المرأة رفضته مع أنه يكافئها أو يرجحها .

وقد تتعدى المرأة وضع الشروط والرفض أمام الرجل إلى الاستهزاء به . فيزيد بن حبناء يبين لنا كيف أنه هزأ من أم الغمر لأنها هزئت ببياض شعره وشيبه فأخذ يوضح لها هازئاً أن الشيب مما لا يشين المرء ولكن ما يشيبه أن يقترف ما يبعده عن الجنة ويدخله النار أو ما يجعله يقع تحت لوم العشيرة . يقول [2] :

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٧٥ ، طبعة دار الشروق .

[2] – شعر الخوارج ، ص ٨٦ ، ٨٧ ، الكامل للمبرد : ١ / ١٣٨ .

إنىَّ هزئت من أم الغمر إذ هَزِئتْ

بشيب رأسى وما بالشيب من عار

ما شقوةُ المــرء بالإقتــار يُقْتَــرُهُ

ولا ســـعادته يومـــاً بإكثـــارِ

إن الشقىَّ الذى فى النــار منزلــهُ

والفوز فوزُ الذى ينجو من النــارِ

أعوذ بالله من أمــر يــزيَّنُ لــى

لومَ العشيرةِ أو يُدْنى مــن العــار

وخير دنيــا ينسَّــى شــرَّ آخــره

وسوف ينبــئ الجبــارُ أخبــارى

لا أقرب البيتَ أحبو من مُــؤخره

ولا أكسِّر فى ابن العــمِّ أظفــارى

إن يحجب الله أبصــاراً أراقبهــا

فقد يرى اللهُ حال المدلج السّــارى

بل قد يصل الأمر إلى أن تسعى المرأة إلى تطليق نفسها حتى تتزوج بمن تحبه كما فعلت جمرة حيث " كانت جمرة زوجاً لسويد بــن منجــوف ، فسمعت بعمران بن حطان وعبادته ونسكه فطلبت إليه أن يخلصها من زوجها، وقالت : قد أحببت أن أكون لك ، فإن رأيى رأيك ودينى دينك ، فأقبل عمران ومعه نفر من الخوارج على سويد وكلموه فى أمرهــا ، فطلقهــا وتزوجهــا

عمران ؛ وقيل لسويد : أطلقت جمرة خوفاً من الخوارج ؟ فقال : لا ولكنـــى لا أحب أن يكون عندى من يكرهنى .

ويحكى لنا عمران هذه القصة مادحا سويداً بعد أن نزل على رغبــة جمرة فطلقها وتزوجها عمران بقول : [1]

سُوَيْدُ بن منجوف كريمُ نمت بـــه
جـــدودٌ وآبـــاءٌ عظـــامُ الدَّســـائع
دعتنــــى إليـــه حاجـــةٌ فوجدتـــه
لعمر أبيك الخيرَ ســـهلَ التســـارعِ
دعا حُرَّةً لم يقبـــل الكفـــر قلبُهـــا
فلم ترد أى الفاضح الـــدين نـــافع
فقال لها يـــا جمـــرَ ردّى جوابَـــهُ
بحقٍّ ، وكفىّ عن جواب المخـــادعِ
فقالـــت مقـــالَ المســـتزيد لنفســـه
خلاصاً وكانـــت فـــوزةً للمقـــارع
فلـــم أر مطلوبـــاً إليـــه حليلـــةً
أردَّ بمحمود مـــن القـــول جـــامع
علـــى مثلنـــا منـــه ، فللـــه دَرُّه
وإن كان شيخاً للهدى غيـــرَ تـــابع

[1] – شعر الخوارج ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

فعمران بن حطان صنع ما يصنعه جماعات التطرف فى عصرنا حيث يطلِّقون المرأة الخارجة من زوجها بحجة أنه كافر لا يتّبع ملتهم وهذا ما أشار إليه عمران فبعد أن أثنى على سويد أشار إلى أنه لم يتبع دين الهدى والذى يقصد به دين الخوارج .

والمرأة عندما ترتبط بالرجل فذلك لأن المرأة فى حاجة إلى الرجل على الدوام أياً كان موقعها منه ابناً أو زوجاً أو أباً لأن الرجل فى الأغلب يقوّى ضعف المرأة : وتوضح هذه الحاجة امرأة من الخوارج عندما قدّم الحجاج خارجياً ليقتله ، فدخل عليه نسوة ، أقارب ذلك الرجل ، فقالت : [1]

أحجاج لو تشهد مقامَ بناته
وعماته يندبن بالليل أجمعا
أحجَاجُ إما أن تمنَّ بتركه
علينا وإما أن تُقَتِّلنا معا
أحجاجُ لا تفجع به ونسائه
ثمانا وتسعاً واثنتين وأربعا
فمن رجلٌ دانٍ يقوم مقامه
علينا ، فمهلا لا تزدنا تضعضعا

ولم تقتصر حاجة المرأة للرجل على أن يقوم على شئونها فقط بل قد تصل الحاجة إلى أن يعفها ويقضى وطره منها .

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

فهذه امرأة خارجية تركت زوجها والتحقت بمعسكر الضحاك وأقامت فيه سنين . ولكنها تشتاق إلى زوجها فتترك ملة الضحاك وتذهب إلى زوجها يعفها وتتمتع بالحياة معه تقول : [١]

تركــت رمحـــاً لينـــا مسُـــهُ
وجئـــت رمحـــاً مَسُـــه قاتـــلُ

شـــتان هـــذا بـــدمٍ ســـائل
وذاك منـــه عَسَـــلٌ ســـائلُ

مطعون ذا كـم منـه فـي لـذةٍ
وأمُ مطعـــونٍ بـــذا ثاكـــلُ

مـــرّوا بنـــا نرجـــعُ إلـــى ديننـــا
فكـــلُ ديـــن غيـــرهِ باطـــلُ

وَمِلَّـــةُ الضـــحاك متروكـــة
لا يجتبيهـــا أحـــدٌ عاقـــلُ

وفى هذه الأبيات ما يبين فساد عقيدة الخوارج بشهادة امرأة عاشرتهم ثم فرّت منهم .

ولأن المرأة في حاجة دائماً إلى الرجل فكثيراً ما كانت تبحث معه عن الأمن والاستقرار . وكثيراً ما تملُ أجواء القتل والموت والدمار . إنها تريد أن تأنس بزوجها في حياة هادئة مستقرة . حتى جمرة زوجة عمران بن حطـان التى شجعته على الخروج ودفعته إليه ، ملت الموت وأرادت أن تبحـث لهـا ولزوجها عن مكان آمن ، ولهذا نجد عمران يحاول أن يقنعها بالبقـاء بـين

---

[١] - شعر الخوارج ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، طبعة دار الشروق .

الخوارج لأن الموت مكتوب على كل إنسان فى زمان ومكان محددين ، ولا يستطيع الإنسان أن يهرب منه ، ولا يوجد إنسان مخلد على الإطـلاق حتـى الأنبياء ماتوا جميعاً وغيرهم من كبار الخوارج . يقول عمران مخاطبا جمرة التى تحاول أن تثنيه عن الخروج : [1]

إن كنت كارهة للموت فـارتحلى
ثم اطلبى أهـلَ أرض لا يموتونـا

فلستِ واجدةً أرضـا بهـا بشـرٌ
إلاّ يروحـون أفواجـاً ويغـدونا

إلى القبور ، فمـا تنفـكّ أربعـةٌ
تدنى سريراً إلـى لحـدٍ يمشّـونا

يا جمرَ قد مات مرداسٌ وإخوتـه
وقبـل مـوتهم مـاتَ النبيوُنـا

يا جمرَ لو سلمت نفـسٌ مطهـرة
من حادث لم يزل يا جمرَ يعيينـا

إذن لـدامت لمـرداسٍ سـلامتهُ
ومانعاه بـذات الغصـن ناعونـا

نفسى فداؤك من ملقـىً بمهملـةٍ
لم يصبح اليومَ فى الأحداث مدفونا

تركتنـا كيتـامى بـاد والـدهم
فلم يروا بعـده خفضـا ولا لينـا

فالله يجزيك يا مرداس جنته
عنا كما كنت فى الإرشاد تولينـا

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

فعمران فى هذه الأبيات يحاول أن يعيد جمرة إلى أجواء الخـوارج ، إلى عقيدة راسخة اعتنقوها ويجب أن يتمسكوا بها يحاول أن يذكِّرها بالمثـل الأعلى للخوارج أبى بلال مرداس بن أديّة ، وأتخيل أن جمرة لم تـنس هـذه الأجواء ولكن النوازع الإنسانية تتجاذبها فهى كأى امرأة تبحث عـن الأمـن والاستقرار. ولهذا نجدها فى بعض الأحيان تمد فى آمالها الدنيوية ويحـاول عمران أن يعيد إليها توازنها الخارجى . إن جمرة هنا قد تمثل نفس عمـران ذاته الباحثة عن الأمان بعد أن أصبح مطارداً من عديد من الولاة . نفسه هذه ربما هى التى شجعته على القعود . فجمرة ربما تكون الضمير الحى لعمران . يعيش معه فى صراع ، ولكنه فى النهاية لا يريد أن يتراجع لأنه لم يعد فـى العمر بقية . يقول عمران متوجهاً بالخطاب إلى جمر والتى قد تكون ذاته : [1]

يا جمرَ يا جمرَ لا يطمح بك الأمـلُ
فقد يكـذّبُ ظـنَّ الآمِـل الأجـلُ
يا جمرَ كيف يذوقُ الخفض معتـرفٌ
بالموتِ والموتُ فيما بعـده حلـل
كيـف أواسـيك والأيـام مقبلـةٌ
فيها لكل امرئ عن غيـره شـغلُ
وقـد أظلتـك أيَـام لهـا حَمَـسٌ
فيها الزلال والأهوالُ والوَهَـلُ [2]

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ١٧٢ .
[2] - الحَمَسُ : الشدة ، الزلازل : يقصد بها الأهوال والشدائد .
الوَهَلُ : الخوف والفزع والذهول .

امرأة أخرى وشاعر خارجى آخر هو زياد الأعسمَ [1] الذى حاول أن يترك زوجه أيام عرسها لينطلق مع الخوارج ، ولكنها تلومه وتعاتبه مدفوعة بغريزة حب الحياة والبحث عن السعادة بجوار زوجها ، ولكنه يطلب منها أن تكف لأنه لا يعقل أن يترك الشراة والأهوال والمحن تحيط بهم من كل جانب. كان من الممكن أن يسمع لكلامها ولكن قبل أن يعتنق مذهب الخوارج يقــول زيادُ الأعسم حين ترك عروسه وخرج [2] .

تعاتبنى عِرْسى على أن أطيعهــا

وقبلَ سليمى ما عصيتُ الغوانيــا

فكفىَّ سليمى واتركى اللومَ إننـــى

أرى فتنة صماء تبدى المخازيا

فكيف قُعُودى والشراةُ كمــا أرى

عزين يلاقــون البلايــا الــدواهيا

ثم نراه يحاول أن يذكرّ زوجه ببعض رموز الخوارج وهو داود بــن النعمان العبدى المشهود له بالزهد والورع . فلعلها تقلع عن لومهــا وعتابهــا يقول زياد [3] :

سقى الله أجساداً تلــوح عظامهــا

بفرضةِ موقــوع ســحاباً غواديــا

فــإن يــك داودُ مضـــى لســبيله

فقد كان ذا شــوق إلـــى الله تاليــا

---

[1] – كان يرى رأى الأزارقة .

[2] – شعر الخوارج ، ص ١٩٠ .

[3] – شعر الخوارج ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

وقد كان ذا أهلٍ ومـــالٍ وغبطـــةٍ

وكان لما تِفنى من العــيشِ قاليـــا

كأنّ الفتـــى داود لـــم يـــك فـــيكمُ

ولم نره يوماً من الصـــــــوم باليا [1]

أقيم علـــى الـــدنيا كـــأنى لا أرى

زوالا لها وأحسبُ العــيش باقيـــا

ألا فـــاذكرنْ داود إذ بـــاع نفســـه

وجاد بها يبغى الجنـــانَ العواليـــا

ولم يتوقف الأمر عند اللوم والعتاب فقط بل قد يتعداهما إلى أن تهجر المرأة زوجها إذا ما وجدته يعد فرسه للخروج يقول الأعرج المعنى مخاطبـــا زوجته بنت آل سعد [2] :

هـــاجرتى يـــا بنـــتَ آل ســـعدِ

أ إن حَلبْـــــتُ لقحـــــةً للـــــورد

جهلـــت مـــن عنانـــه الممتـــدِّ

ونظـــرى فـــى عطفـــه الأبـــدِّ

إذا جيـــاد الخيـــلِ جـــاءت تـــردى

مملـــوءةً مـــن غضـــبٍ وجـــردِ

---

[1] – كان داود عابداً مجتهداً وكان يقول لأصحابه : إنى قد مللت الدنيا والمقام فى دار الكفر مع الظلمة الكفرة ، ثم حج وتوجه فى أربعين من أصحابه إلى البصرة ، وكان أبـــوه غنيا فحاول أن يثنيه عن ذلك فأبى وخرج إلى موقع فتوجه إليه جـــيشٌ فقاتـــل هـــو وأصحابه حتى قتلوا جميعاً ، شعر الخوارج ، ص ١٨٩ .

[2] – شعر الخوارج ، ص ٢٤٥ ، والورد : الخيل بين الكميت والأشقر .

ولكن ربما كانت الزوجة تعاتب وتلوم أو حتـــى تهجـــر مدفوعـــة بالخوف على زوجها فهى لا تريد أن تفجع فيه . ولهذا نجد الأعرج المعنـــى يبرز هذا المعنى فى حديثه عن أم سهل والتى ربما تكون هى نفسها بنـــت آل سعد يقول مؤكداً معانى الأبيات السابقة [1] :

أرى أم سَهْلٍ مـــا تـــزال تفجّـــعُ
تلـــوم ومـــا أدرى عـــلامَ توجَّـــعُ
تلومُ على أن أمنحَ الـــوَرْدَ لقحـــةً
وما تستوى والوردَ ســـاعةً تفـــزع
إذا هى قامـــت حاســـراً مشـــمعلةً
نخيبَ الفـــؤاد رأســـها مـــا يقنّـــعُ
وقمـــت إليهـــا باللّجـــام ميسِّـــراً
هنالك يجزينى بما كنـــتُ أصـــنعُ

والخوف على الرجل من قِبل المرأة لم يعتبره الخارجى شعوراً سلبياً . بل كان يحترمه ويقدره ويجعله يضع المرأة فى ذاكرته حتى وهو فـــى قلـــب المعركة يتخيل قلقها وخوفها عليه فيتمنى ، أن يطمئنها ويجعلها تعايشه فـــى المعركة . " قيل للمهلب : ما أعجب ما رأيت من أمر الأزارقة ؟ قال : فتـــى كان يخرج إلينا منهم فى كلّ غداة فيقف ويقول :

وسائلةٍ بالغيب عنـــىٍّ ولـــو دَرَت
مقارعتى الأبطالَ طـــال نحيبُهـــا
إذا ما التقينـــا كنـــتُ أولَ فـــارس
يجـــودُ بنفسٍ أثقلتـــــها ذُنوبُـــها [2]

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٤٣ .
[2] – شعر الخوارج ، ص ١٣٣ .

ولكن اللوم والعتاب والخوف على الرجل لم تكن سمات مشتركة عند كل نساء الخوارج . بل نجد بعضهن ينظر إلى الخـروج والاشـتراك فـى المعارك على أنه زيادة للدخل وعودة الرجل محملاً بالهدايا . ولهذا لا نتعجب كثيراً إذا ما وجدنا امرأة تتوجه باللوم إلى زوجها وهو فى أرض المعركـة لا لتجعله يترك المعركة ويعود إليها ولكن لأنه تأخر فى إرسال الهدايا .

فالهدايا لها فعل السحر فى تأليف القلوب وبالذات عند المرأة ، فالهدية عند المرأة – وبالذات من الزوج – لا تتمثل فى قيمتها المادية فقط ولكن فيما تحمله من التأكد من تقدير وحب الرجل لها ، وأنها ما زالت فـى ذاكرتـه . ولهذا وجدنا المرأة الخارجية كأى امرأة وكأى زوجة تريد أن تختبر عواطف زوجها نحوها ولهذا وجدناها تطالبه بالهدايا وهى تعلم أنه فى أحلك اللحظات إما أن يكون متحفزاً للهجوم على أعدائه ، أو متحفزاً لرد هجوم أعدائه .

وحول هذا نجد يزيد بن حبناء الخارجى يتوجه إلى زوجه بالخطـاب طالباً منها ألا تتوجّه إليه باللوم لأنه تأخر عليها فى إرسال الهدايا ، وأن تصبر لأن ما هى فيه الآن لن يدوم طويلاً ، ويخبرها بأنها تعجلت الطلب ، فالهدايا لا تكون إلاّ من غنائم الحروب ، والحرب لم تنته بعد فكيف تطلب منه الهدايا الآن ! : يقول :

دعى اللومَ إنَّ العيشَ ليس بـدائم
ولا تعجلى باللوم يـا أمَّ عاصـمِ
فإن عَجلْتِ منك الملامَةُ فاسـمعى
مقالـةَ معنـيٍّ بحقِّـك عـالمِ
ولا تعـذلينا فـى الهديَّـةِ إنمـا
تكون الهدايا من فُضُـول المغـانم

ثم يصور حالته النفسية وهو على رأس المعركة . فيقول : كيف يفكر فى الهدايا من حاله مثل حالى ! من مجالدة الأعداء طوال النهار وعدم النوم طيلة الليل ؟ كيف يفكر فى الهدايا من وهب نفسه لله راجيا ثوابه طامعاً فى الشهادة ؟ كيف يفكر فى الهدايا من يقضى نهاره وليله متسربلاً بالدروع ، زرده على رأسه ، وسيفه على صدره ، يقول [1] :

فليس بمُهدٍ من يكون نهاره
جلاداً ويمسى لَيْلُه غيرَ نائمِ
يريد ثواب الله يوماً بطعنةٍ
غموسٍ كشِدْقِ العنبرِ بن سالم
أبيت وسربالى دِلاصٌ حصينةٌ
ومغْفرُها والسيف فوق الحيازم [2]

ثم يذهب إلى أن الجو المحيط به لا يجعله يفكر فى غير المعركة فقط، فكيف يفكر فى الهدايا لزوجته مع أن كل المحيطين به وهبوا أنفسهم لله وعزفوا عن كل متاع الدنيا ؛ ولا تراهم إلاّ والرماح مشرعة فى أيديهم ، مستعدين للقتل والقتال باستمرار ، يقول [3] :

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٨٥ .

[2] – دلاص : درع ملساء براقة لينة ، والمغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة ، والحيازم : الصدور .

[3] – شعر الخوارج ، ص ٨٦ .

حلفــت بــربِّ الــواقفين عشــيّة
لدى عرفــات حلفــةً غيــر آثــم
لقد كان فى القوم الــذين لقيــتهُم
بسابورَ شغلٌ عن بُزوز اللطائم [1]
تَوَقّـــدُ فـــى أيـــديهم زاعبيّـــةٌ
ومرهفةٌ تفرى شئون الجمــاجم [2]
ترى الخيل تردى بالتجافيف بينهم
بفرسانها مرَّ النسور القشــاعمِ [3]
إذا انتطحت منّا كراديسُ غــادرت
جراثيمَ صرعى للنسورِ القشاعمِ [4]

وبرغم هذا لم ينس يزيد بن حبناء زوجه على الإطلاق بل هــى فــى ذاكرته على الدوام ولكنها تعجلت الأمر . يقول [5] :

ولم أك مشغولا بسابور عنكم
وبالسفح إذ نغشى صدورَ الغواشمِ [6]

---

[1] – البزوز : جمع بز أى أنواع الثياب ، واللطائم : الإبل التى تحمل البز والعطر .

[2] – الزغابية : الرماح منسوبة إلى زاغب وهو رجل من الخزرج .

[3] – التجافيف : جمع تجفاف وهو ما يوضع على الخيل وتجلل به من سلاح وآلــة تقيهــا الجراح .

[4] – القشعم : النسر المسنّ ، الجراثيم : جمع جرثومة وهو ما اجتمع وتكوّم ، ويعنــى بــه جثث القتلى .

[5] – شعر الخوارج ، ص ٨٦ .

[6] – الغواشم : الظلام الدامس .

وإذا كانت المرأة فى ذاكرة الرجل باستمرار ، يتذكرها حتى فى أشد الأوقات . فهى أيضاً كانت شديدة القرب من زوجها تشاركه مشاعره والتى يغلب عليها دائماً الحزن والأسى . نظراً لكثرة قتلاهم . ولهذا نجد الزوجة تبكى لحزن زوجها حتى تختلط دموعها بدموعه مخففة عنه آلامه وشجونه ، يقول عمرو بن الحصن العنبرى وهو يرثى جماعة من الشراة موضحاً مشاعر زوجه ، جاعلاً من وصف مشاعرها مقدمة لقصيدة طويلة من عيون شعر الرثاء عند الخوارج [1] :

هبّت قبيل تبلج الفجر
هندٌ تَقول ودمعها يجرى

إذا أبصرت عينى وأدمعها
ينهلُ واكفها على النحرِ

أنىّ اعتراك وكنت عهدى لا
سربَ الدموع ، وكنت ذا صبر

أقذى بعينك ما يفارقها
أم عائر أم مالها تذْرى [2]

أم ذكرُ إخوان فجعت بهم
سلكوا سبيلهم على قدرِ

فأجبتها بل ذكرُ مصرعهم
لا غيره عبراتها يمرى

يا ربِّ أسلكنى سبيلهمُ
ذا العرش ، واشدُدْ بالتقى أزرى

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

[2] – العائر : ما يصيب العين فيعلّها .

فـــى فتيـــةٍ صـــبروا نفوســـهم
للمشـــــرفيَّةِ والقنـــــا السّـــمْرِ
تـــالله ألقــــى الـــدّهرَ مـــثلهم
حتـــى أكـــون رهينـــة القبـــرِ

امرأة أخرى تشارك الرجل فى حزنه على قتلاهم . يقول الخيبـرىّ ؛ وهو من أصحاب الضحاك [1] :

وقائلـــة ودمـــع العـــين يجـــرى
على روح ابن علقمـــة الســـلامُ [2]

أ أدركـــك الحمـــامُ وأنـــت ســـارٍ
وكـــلّ فتـــى لمصـــرعه حمـــام

فـــلا رعـــش اليـــدين ولا هـــوانٌ
ولا وَكِـــلُ اللقـــاء ولا كَهـــامُ [3]

ومـــا قتـــلُ علـــى شـــارٍ بعـــارٍ
ولكـــن يقتلـــون وهـــم كـــرامُ

طغامُ النـــاس لـــيس لهـــم ســـبيلٌ
شجانى يا ابن علقمـــة الطغـــام [4]

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٠٦ .

[2] – عبد الملك بن علقمة : أحد القادة البارزين فى جيش الضحاك بـــن قـــيس قتـــل ســـنة ١٢٧هـ .

[3] – هوان : الأحمق البليد ، الوكل : الرجل الضعيف الجبان البليد .

[4] – الطغام : الأرازل الحمقى الأوغاد .

وإذا كانت المرأة تشارك زوجها آلامه وأحزانه فى حياته فليس أقل من أن تبكيه بكاءً حاراً بعد وفاته ، بالذات إذا مات مقتولاً فى معركة ، يصور لنا أيوب بن خولى البجلى هذه المشاعر فيقول فى رثاء أحد القتلى [1] .

تركت تميم بن الحُبابِ ملحَّباً

تبكى عليه عِرْسُهُ وقرائبه

فإذا ما مات الرجل وسكنت الجوارح عند المرأة ، فسرعان ما تبرز سمة الوفاء عند المرأة الخارجية كنزعة إنسانية توجد عند الكثيرات . وتجسّد لنا جمرة هذه السمة فى قصتها مع زوجها الأول سويد بعد موت عمران بن حطان ، " فلما توفى عمران جاء سويد بن منجوف يخطب جمرةً فقالت له : مكانك حتى أخرج إليك ثم قامت فدخلت إلى مخدع لها فلبست مطرفاً كان لعمران ، ولفت عمامته على رأسها ، وخرجت ، فقال لها سويد ما هذا يا جمرة ؟ فقالت : إنى سمعت خليلى أباشهاب (عمران) يقول : " وتلبس يوما عِرسه ... " فأحببت أن أصدق قول أبى شهاب : يلبس هذا من ثيابه ، فانصرف عنى من حيث جئت فلا حاجة لى فى التزويج بعد أبى شهاب " [2] .
وهى تشير لبيتين لعمران يقول فيهما [3] :

وتلبسَ يوما عِرْسُهُ من ثيابه

إذا قيل هذا يا فلانةُ خاطبُ

كأن لم تكن من قبل ذاك ولم يكنْ

نصيبٌ لها فى سالف الدهرِ صاحب

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ١٩٧ ، والملحب : المقطّع .
[2] - شعر الخوارج ، هامش ، ص ١٤٩ .
[3] - شعر الخوارج ، ص ١٤٩ .

والبكاء على الزوج الراحل لم تكن سمة من سمات المرأة فقط بل هى سمة يشاركها فيها الزوج عندما ترحل زوجته ، فسرعان ما يبكيها بكاءً حاراً موضحاً الفراغ الذى تركته والأخلاق التى كانت تتخلق بها . يقول مالك المزموم راثياً امرأته أم العلاء [١] :

امررْ على الجَدَثِ الذى حلت به
أمُّ العلاءِ فنادها لو تسمعُ
أنّى حللتِ وكنتِ جدَّ فروقةٍ
بلداً يمرُّ به الشجاعُ فيفزعُ
صلى الإلهُ عليك من مفقودةٍ
إذ لا يلائمك المكانُ البلقعُ
فلقد تركت صبيةً مرحومةً
لم تدرِ ما جَزَعٌ عليك فتجزعُ
فقدت شمائل من لِزامك حُلوةً
فتبيت تسهرُ ليلها وتَفَجَّعُ
فإذا سمعتُ أنينها فى ليلها
طَفقتْ عليك شئونُ عينى تدمعُ

فالشاعر يتوجه بالحديث لزوجته قائلاً : كيف سكنت هذا المكان القفر الذى يفزع الشجاع إذا مرّ به وعهدى بك ضعيفة القلب شديدة الخوف ، ويدعو لها الله بالرحمة حيث رقدت فى مكان لا يتناسب مع رقتها وضعفها . ثم يشير الشاعر إلى ابنته الصغيرة التى فقدت أمها والتى لا تدرى المصيبة التى حلت بها ، ولكنها فقدت سجايا وأخلاقاً حميدة ، وعطفاً وحناناً ، تبيت الليل تبكى

[١] - شعر الخوارج ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

لإحساسها بهذا الفقد . مما جعلت الأب يبكى من أجل الابنة ومن أجل أمهـا الراحلة .

وإذا كانت هذه سمات المرأة الخارجية وهى سمات أى امرأة عاديـة تتجاذبها نوازع إنسانية خاصة مع زوجها إلاّ أنها لو تحولت إلى فتنـة بـين الرجال يكون مصيرها القتل مثلما حدث فى معسكر قطرى بن الفجاءة . حيث يقول رجل من الخوارج فى أبى حديد العبدى – أحد رجال قطرى بن الفجاءة – حين قتل امرأة أثارت فتنة [1] .

كفانـا فتنـةً عَظمَـتَ وحلَّـتْ
بحمـد الله سـيفُ أبـى حديـدِ

تَغـالى المسـلمون بهـا وقـالوا
على فرطِ الهوى : هل من مزيـدِ

فزاد أبو الحديـد بفضـل سـيفٍ
رقيق الحدِّ ، فعـلَ فتـىً رشـيد

يوضح البلازرى هذه الحادثة فيذهب : " إلى أن هذه المـرأة هـى أم حفص بنت المنذر بن الجارود زوج عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد ، فتزايد عليها قوم أسلموا من المجوس وصاروا خوارج ، ففـرض لهـم الخـوارج خمسمائة خمسمائة ، حتى بلغوا بها سبعين ألفاً ، فغم ذلك قطرى بن الفجـاءة وقال : ما ينبغى لرجل من المسلمين المهاجرين أن يكون له سبعون ألف درهم وإن هذه لفتنة ، فضربها أبو الحديد العبدى فقتلها ، فأخذوه ، فقال قطـرى :

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ١٣٧ .

مهيم يا أبا الحديد ، قال : يا أمير المؤمنين خشيت الفتنة عليهم فى هذه المشركة ، قال أحسنت [1] " .

عجبا أن يحدث هذا بين من يدعون أنهم حماة الدين والقائمون على تنفيذ أحكامه . يسبون امرأة متزوجة ويقيمون لها مزاداً فيما بينهم وعندما يختلفون تقتل المرأة حتى لا تحدث فتنة . فى أى دين هذا ، ولأنها فى الأساس مشركة فى عرفهم يباح دمها حتى لو كانت مسلمة ما دامت ليست على مذهب الخوارج .

فإذا ما تركنا المرأة كزوجة وانتقلنا إلى المرأة كابنة ، وجدنا الابنة تشكل عاملاً مهما فى حياة الآباء ، لأنها عنوان العرض والشرف فصيانتها مطلوبة دائماً من الآباء ، كما أنهن يمثلن الجانب الأضعف دائماً الذى يحتاج الرعاية وبالذات صغيرات السن منهن ، لدرجة أن البنت كانت تمثل عبئاً نفسياً للرجل حتى أنه يخشى أن يموت مخلفاً بنات ، وحتى أنه يرحب بالموت مسروراً به ما دام ليس عليه دين وليس له بنات . يقول ابن الأعرابى : " سمعتُ شيخاً أعرابيا يقول : إنىّ لأسرّ بالموت ، لا دَيْن ولا بنات " [2] .

ومنذ العصر الجاهلى تقف أبيات المعلى الطائى شامخة فوق صفحات التاريخ لتدلل على العلاقة الوطيدة بين الرجل وبين بناته والتى تخلق نوعاً من الحنان الزائد من الأب لدرجة أنه لا يستطيع أن يتركهن وينتقل من مكان إلى

---

[1] – أنساب الأشراف للبلازرى ، ٣ / ٢٣ ، سنة ١٩٧١ .

[2] – البيان والتبيين للجاحظ ، جـ٣ / ١٤٩ .

مكان ، كما أنه حريص عليهن لدرجة لو مست الريح إحداهن ولو مساً خفيفاً امتنعت عينه عن الغمض . يقول المعلى [1] .

لــولا بنيــات كزغــب القطــا
حُططــن من بعض إلى بعض [2]

لكــان لــي مضــطرب واســعٌ
في الأرض ذات الطُول والعَرْضِ

إنّمــا أولادنــا بَيْننــا
أكبادنــا تمشــي علــى الأرض

إن هبّت الــريح علــى بعضــهم
لم تشــبع العــينُ مــن الغمــضِ

أو هذه العلاقة الوطيدة بين الرجل وابنته التي يصورها لنا مالك بــن الريب " حين ذهب قبل الانصراف مع الجيش خارج الديار إلى توديع ابنتــه التي تعلقت بثوبه وبكت وقالت له : أخشى أن يطول سفرك أو يحول المــوت بيننا فلا نلتقي ، فبكى مالك – ربما لأول مرة . وأنشأ هذه القصيدة التي تلقى من قارئها غرابة ودهشة إذا ما عرف أنها صادرة عن لص الأمس ، قــاطع الطريق ، قاتل النفس ، معكر صفو الأمن ... يقول مالك وهو يبكي مودعــاً ابنته [3] :

---

[1] – العقد الفريد ، جـ٢ / ٤٣٤ .

[2] – وفي رواية " رددن " .

[3] – رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية ، د. مصطفى الشكعة ، ص ٣٥٩ ، وما بعدها الدار المصرية اللبنانية ، ط١ ، سنة ١٩٩٧ ، القاهرة .

ولقد قلتُ لابنتـــى وهـــى تبكـــى
بـــدخيل الهمـــوم قلبـــاً كئيبـــا
وهى تُذَرى من الدموع على الخدّ
ين مـــن لوعـــة الفـــراقِ غُروبَـــا
عبراتٍ يَكدْنَ يجـــرحنَ مـــا جُـــزْ
نَ بـــه أو يَـــدَعْنَ فيـــه نـــدوبا
حَذَرَ الحتـــفِ أن يُصـــيبَ أباهـــا
ويلاقى فى غيـــرِ أهـــل شَـــعُوبا
اسكُتِى قد حززتِ بالـــدمع قلبـــى
طالمـــاً حَـــزَّ دَمْعُكُـــنَّ القُلُوبَـــا
فعســـى الله أن يُـــدافع عنـــى
رَيْبَ ما تحـــذرينَ حتـــى أؤوبـــا
ليس شـــىءٌ يشـــاؤه ذو المعـــالى
بعزيـــز عليـــه فـــادعى المُجيبـــاً
ودعـــى أن تقطعـــى الآن قلبـــى
أو تُرينـــى فـــى رحلتـــى تعـــذيبا
أنـــا فـــى قبضـــةِ الله إذا كنـــــ
ـت بعيـــداً أو كنـــتُ منـــك قريبـــا
كم رأينا امـــرأ أتـــى مـــن بعيـــد
ومقيمـــاً علـــى الفـــراشِ أصـــيبا
فـــدعينى مـــن انتحابـــك إنـــىّ
لا أبالى – إذا اعتزمتُ – النحيبـــا
حســـبى اللهُ ثـــم قربـــت للســـــ
ـــير عَلاةً أنجـــب بهـــا مركوبـــا

هكذا ينقل لنا مالك بن الريب المشاعر الإنسانية الفياضة بينـــه وبـــين ابنته والتى ستبقى ما بقى رجل وابنته على ظهر الأرض .

هذه المشاعر لم تكن بعيدة عن الخوارج فبرغم أنهـم كـانوا غـلاظ القلوب على أعدائهم . إلاّ أنهم كانوا أرق ما يكون على بناتهم ، فـالعواطف الإنسانية واحدة لا تتغير ، ولهذا وجدنا البنت تشغل بال والدها على الـدوام . وما ذاك إلاّ لضعفها وقلة حيلتها ، ولهذا كانت هذه العاطفـة المشـبوبة بـين الرجل وبناته. فالرجل الخارجى لا ينفك من أسر هذه العاطفة ، فـأبو خالـد عيسى بن فاتك الخارجى يتقاعس عن الاشتراك فى القتال مع الخوارج مفضلاً القعود على الجهاد معهم . وعندما لامه قطرى بن الفجاءة على ذلك فى شعره حيث يقول : [1]

أبا خالـد انفـر فلسـت بخالـد
وما جعل الرحمنُ عـذراً لقاعـدِ
أتزعم أن الخارجى على الهُـدى
وأنت مقيم بـين لـصٍ وجاحـدِ

فيكتب إليه أبو خالد موضحاً له أنه لم يترك الجهاد رغبة فى القعـود ولكن ذلك بسبب الخوف على بناته من الفقر والعرى أو يشربن كدر العـيش بعد عيشتهن الصافية معه ، أو أن يتعهد بأمرهن من هو غليظ القلب فيعاملهن بلا رحمة ولا شفقة . فخوفه على بناته هو سر تعلقه بالحياة ولولا هذا لركب جواده وانطلق مع الخوارج . يقول أبو خالد [2] :

---

[1] – الكامل للمبرد ، جـ٣ / ١٠٨١ .

[2] – شعر الخوارج ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، والكامل ، جـ٣ ، ١٠٨٢ .

لقد زاد الحياةَ إليّ حُباً
بناتى إنهنَّ من الضعافِ
مخافة أن يَرَيْنَ البؤس بعدى
وأن يشربْنَ رَنْقاً غيرَ صافِ
وأن يَعْرَيْنَ إن كسى الجوارى
فتنبو العين عن كرمٍ عجافِ
وأن يضطرهُنَّ الدَّهرُ بعدى
إلى جلفٍ من الأعمام جافِ
فلولا ذاك قد سوّمت مُهْرى
وفى الرحمنِ للضعفاء كافِ
تقول بُنَيّتى أوْصى الموالى
وكيف وصاةُ من هو عنك جافِ
أبانا من لنا إن غبتَ عنا
وصار الحىُّ بعدك فى اختلافِ

إنها صرخة ابنة ينقلها أبو خالد عيسى بن فاتك ، " أبانا من لنا إن غبت عنا " ، إنها صرخة تهز عرش أقوى القلوب ، ولهذا فضل هذا الرجل القيام على حاجة بناته على جهاد قريب أيضاً إلى نفسه .

ونجد خارجيا آخر ترك أولاده وبناته وذهب ليشارك مع قطرى بن النجاءة فى بعض المعارك ضد جيش المهلب بن أبى صفرة ، وبدأ المهلب يطاردهم ويحقق انتصارات عليهم فنفر قطرى وجنوده . فنجد هذا الرجل يفكر أول ما يفكر فى بناته ، كيف حالهم الآن فى أرض (جيرفت) وماذا لو وقعوا

فى الأسر وتحولت بناته إلى سبايا . فنجده يخاطب الجانب الإنسـانى فـى المهلب بن أبى صفره محاولاً استعطافه على غير عادة الخـوارج حتـى لا يصنع فى بناته وعياله ما يصنعه غيره فى هذه المواقف .

يقول عبيدة بن هلال اليشكرى مستعطفاً المهلب وخائفاً على عياله [1] :

قـرّت العـين بالشـراة وأمسـى
للمحلـين غيـر مـا زلـزالِ
وتبارى المهلب بن أبـى صـفرة
للمـوت عنـد هلـك الرجـالِ
مدّ رجليه للقـراع مـن الحـرب
ومـد اليـدين للأنفـالِ
وعيالى مطرّحـون بجيرفـت (م)
لـك الخيـر أيـن منـىّ عيـالى
إن تنلهم يَدُ المهلب فى الحرب (م)
سـبايا فـإننى لا أبـالى
يمنع الشيخ منهم عِظَـمُ الخطـب
وأن لـيس بـيعهم بحـلالِ
إنّ من خالهُ المهلـبُ فـى النـا
س لـه هيبـةٌ وعِـزٌ جـلالِ

فأبو عبيدة يرضى أن يتنازل عن كرامته وكبريائه من أجل بناته .

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ١١٢ ، طبعة دار الشروق .

وخبرٌ آخر يرويه عمران بن حطان يقول : " قال لى خبيبة – خبيبة النصرى من قيس كان مجتهداً – لما عزمتُ على الخروج فكرت فى بناتى ، فقلت ذات ليلة : لأُمْسِكنَّ عن نفعهنّ حتى أنظرُ ، فلما كان فى جـوف الليـل استسقت بنيَّةٌ لى ، فقالت : يا أبتِ اسقنى ، فلم أجبها ، فأعادت فقامت أخَيَّةٌ لها أَسَنَّ فسقتها فعلمت أن الله عز وجلّ غير مضيّعهن فأتممت عزمى " [1] .

فهذا الخبر يدل على خوف الخارجى على بناته والتفكير فيهن وهـذه نزعة إنسانية يشترك فيها الخارجى وغير الخارجى .

وبهذا نكون قد انتهينا من دراسة المرأة الخارجية كإنسانة وأنها لم تكن مقاتلة مجاهدة طوال الوقت بل كانت تتصرف فى حـالات كثيـرة مدفوعـة برغباتها ونوازعها الإنسانية كغيرها من النساء .

[1] – الكامل للمبرد ، جـ٣ / ١١٨١ .

الفصل الثالث

المـــرأة شـــاعرة

اشتهر الخوارج بالفصاحة والبلاغة والبيان والجدل ، وذلك لأن معظم الذين خرجوا منهم فى البداية على الإمام علىّ بن أبى طالب كانوا من القرّاء الذين كانوا يحفظون القرآن مما صقل ألسنتهم ووسع مداركهم وإن نحت بهم ثقافتهم إلى الجدل والتأويل . أغلبهم امتلك اللغة ومع الموهبة انساب الشعر على ألسنتهم بدون تصنعه واحترافه كما تنساب العين الثرة من صخور الجبال.

ونساء الخوارج لم يكنّ أقل من الرجال فى الفصاحة والبلاغة والشعر لأن البيئة التى خرج منها الرجال هى نفسها البيئة التى خرج منها النساء ولهذا لا نتعجب إذا ما وجدنا أكثر من امرأة خارجية تتسم بالفصاحة ، وأخرى تفهم الشعر وتحكم فيه ، وأخريات يقرضن الشعر ولهن فيه باع .

ونحن فى هذا الفصل سنتوقف عند المرأة الخارجية شاعرة ، ونحاول إلقاء النظرة على الشعر الخارجى للمرأة من حيث قضاياه وموضوعاته وسماته الفنية .

وقبل أن نسترسل فى دراسة المرأة شاعرة ينبغى أن ننوه – بالأمثلة– إلى فصاحة المرأة الخارجية وثقافتها الأدبية حتى وإن لم تقرض الشعر . فنجد امرأة تقف أمام الحجاج بن يوسف الثقفى كى يصدر القرار بقتلها ولكن فصاحتها وثقافتها الدينية أخرت إصدار هذا القرار بل وتسببت فى إطلاق سراحها ، جاء فى العقد الفريد ، أن " الهيثم بن عدىّ قال : أُتى الحجاج بحرُورية ، فقال لأصحابه ما تقولون فىَ هذه ؟ قالوا : اقتلها – أصلح الله الأمير – ونكِّل بها غيرها ، فتبسمت الحَرُورية ؛ فقال لها : لمَ تبسمت ؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج ، استشارهم

فى قتل موسى ، فقالوا : أرجه وأخاه ، وهؤلاء يأمُرونـك بتعجيـل قتلـى ، فضحك الحجاج ، وأمر بإطلاقها " [1] ، وهى تشير إلى قوله تعالى فى سـورة الأعراف :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ صدق الله العظيم **(الأعراف ١٠٩-١١١)**

ولئن اتسمت هذه المرأة بالفصاحة والجرأة وسرعة استدعاء الشـاهد القرآنى ، فإن قطام ، المرأة التى دفعت عبد الرحمن بن مُلجَم إلى قتل علـىّ ابن أبى طالب – كانت تتسم بثقافة أدبية بالغة ، حيث كانـت تحفـظ الشـعر وتجيد نقده ، وقصتها مع كثيِّر عزة ، تذكرنا بقصة النابغة مع حسان بن ثابت الأنصارى . جاء فى الموشح [2] : " حدثنى محمد بن إبراهيم ، قـال : حـدثنا أحمد بن خيثمة ، عن سليمان بن أبى شيخ ، عن عوانة بن الحكم ، وذكر مقتل أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب – رضى الله عنه – وأمـر قطـام وعبـد الرحمن بن مُلجَم وتزويجها إياه ليقتل أمير المؤمنين علياً ، فبلغ كثيراً ذلـك ، فقال : لآتينّها . فأتاها ، فقالت قطام لكثيِّر : "تسمع بالمُعَيْـدى خيـر مـن أن تراه".

---

[1] – العقد الفريد ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

[2] – الموشح للمرزبانى ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

فقال : كثيّر :

رأت رجلا أوْدَى السَّقام بجســمه

فلــم يَبْــقَ إلاّ منطــقٌ وجَنــاجنُ

فإن أكُ معــروقَ العظــام فــإننى

إذا ما وَزَنْتُ القــوم بــالقوم وازنُ

وإنى لما استودعتنى مــن أمانــة

إذا ضُيِّع الأسرارُ أي يا عَزُّ دافــنُ

قالت : الحمد لله الذى قصّر بك فصرت لا تُعرفُ إلاّ بعزة .

قال : والله ما قصر الله بى ، فقد سار بها شعرى ، وطار بها ذكرى ، وقرب بها مجلسى ، وطابت نفسى ، وإنها كما قلتُ ووصفت ، قالت : فكيف قلت ؟ قال : قلت :

وإنّا سمونا بالوصالِ إلــى التــى

يكون ســناءً ذكرُهــا وازديارُهــا

إذا خفيــت كانــت لعينــك قــرّةً

وإن تبدُ يوما لم يعمّمــك عارُهــا

فقالت له : مُرَّ فى قصيدتك – فقال :

من الخفرات البيض لم ترَ غلظــةً

وفى الحسب الضّخم الرفيع نجارُها

وما روضة بالحزن طيبة الثــرى

وذكره وذكر البيت الذى بعده [١] ، قالت : تالله ما رأيت شاعراً قط أقلَّ عقلا ، ولا أضعف وصفاً منك ، والله لو فعل ذلك بزنجية لطـاب ريحهـا ، لامرؤُ القيس أشْعرُ منك و أوصف حيث يقول :

خليلى مرّبـى علـى أمّ جُنـدَبِ
لنقضىَ لُبنـاتِ الفـؤادِ المعـذَّبِ
ألم تر أنِّى كلمـا جئـتُ طارقـاً
وجدْتُ بها طيباً وإن لـم تُطيَّـبِ

فقام كُثِّير وهو يقول :

الحقُ أبلـجُ مـا يخيـلُ سـبيلهُ
والحـقُّ يعرفـه ذَوُو الألبـاب

والأمر لم يكن مقصوراً على قَطام وفصاحتها ودرايتها بالشعر فقـط فهناك جمرة زوج عمران بن حطان الشاعر الخارجى تسأل زوجها عن شعر كذب فيه فقد قيل : " إن امرأة عمران بن حطان قالت له ألم تـزعم أنـك لا تكذب فى شعرك ؟ قال : بلى ، قالت : أفرأيت قولك :

---

[١] - يشير إلى الأبيات :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثُهـا وعَرَارُهـا
لها أرج بعْـدَ الهـدوء كأنّمـا
تلاقت بهـا عطـارةٌ وتجارُهـا
بأطيب من أردان عزّة مُوْهنـا
وقد أوقدت بالمجمر اللّدنِ نارُهـا

(الموشح ، ص ٢١٤) .

وكذاك مجزأة بن ثـــــور

كان أشجع من أســــــامة

أيكون رجل أشجع من الأسد ؟ قال : نعم إن مجزأة بن ثور فتح مدينة كذا ، والأسد لا يقدر على فتح مدينة " [١] .

فقطام وجمرة ينتميان إلى بيئة عمادها الفصاحة والبلاغة وحفظ القرآن وتعاطى الشعر ، فى فلا نعجب لهذا القدر الكبير من ثقافتهن ، يقول أبو الفرج الأصفهانى مصوراً هذه البيئة المحبّة للقرآن والشعر : " أخبرنى محمـــد بـــن خلف عن الهيثم بن عدى ، قال : كان عبيدة بن هلال إذا تكافّ الناس نـــاداهم ليخرج إلىّ بعضكم فيخرج إليه فتيان من العسكر فيقول لهم أيّما أحبَ إلـــيكم أقرأ عليكم القرآن ، أو أنشدكم الشعر ، فيقولون أمّا القرآن فقد عرفنـــاه مثـــل معرفتك فأنشدنا ، فيقول لهم : يا فَسَقَة والله قد علمت أنكم تختـــارون الشـــعر على القرآن ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملّوا ثم يفترقون " [٢] .

وبعد ، فهذه شواهد تدل على فصاحة المرأة الخارجية ومدى مقدرتها على حفظ الشعر وفهمه ونقده . وكل هذا يشير إلى البيئـــة الثقافيـــة لحـــزب الخوارج . بقى أن نتوقف عند المرأة المبدعة التى لا تحفظ الشـــعر وتتذوقـــه فحسب ؛ بل تقرضه وتبرع فيه .

وأول ما يلفت النظر لشواعر الخوارج أنهن قد عُرِفن من خلال رجال من الخوارج وبالذات فرسانهم ، فأم حكيم كانت مع زعيم الأزارقة قطرى بن

[١] – الأغانى : جـ١٦ ، ص ١٥٩ ، دار صعب ، وانظر أعلام النساء ، جـ٣ / ٣٤٦ .

[٢] – الأغانى : جـ٦ ، ص ٧ .

الفجاءة ، وأخت الحازوق كان أخوها أحد ولاة الخوارج لنجدة الحنفى ... وأم عمران الراسبى هى والدة أحد قادة الأزارقة ، والجعيداء هى زوجة أبى حمزة الشارى ، ومليكة الشيبانية كانت أخت الضحاك بن قيس ، وليلى بنت طريف أخت الوليد الشارى رأس الشراة فى عهد هارون الرشيد . أما عميرة زوجة مجاشع فلا نعرف عنها سوى تمردها على زوجها وتفضيلها الخروج على بيت الطاعة الزوجية [1] .

فالرجل هو محور حياة الشاعرة الخارجية ومحور شاعريتها أيضاً ولكننا عندما نطالع شعر شواعر الخوارج سنجد أنّ ما وصلنا من شعرهم يعد قليلاً للغاية . هذه القلة تنسحب على شعر نسائهم كما تنسحب على شعر رجالهم . فعند استعراضنا لديوان شعر الخوارج الذى جمعه الدكتور إحسان عباس وجدنا أن عدد الشعراء والشواعر فيه يبلغ ستة وتسعين شاعراً وشاعرة بالإضافة إلى خمسين شاعراً وردت أشعارهم تحت عبارة قال أحد الخوارج أو قالت امرأة من الخوارج . ومجموع الشواعر من بين هذا العدد إحدى عشرة شاعرة بالإضافة إلى شاعرة أخرى هى ليلى بنت طريف التى وجدت فى العصر العباسى فى عهد هارون الرشيد ولم يذكرها الدكتور إحسان عباس فى الديوان ، هؤلاء الشواعر لم يصل من شعرهن غير ثلاث وعشرين مقطوعة وقصيدة لا يتجاوز عدد أبياتها مجتمعة مائة وأربعين بيتاً من الشعر فى ديوان لم يتعدَ مجلداً واحداً متوسط الحجم من الممكن أن ينتجه شاعر واحد أو شاعرة واحدة . هذا إذا استثنينا الطرِّماح بن حكيم الذى له ديوان شعر مطبوع ولم يقل فى الشعر الخارجى إلاّ مقطوعات بسيطة أوردها الدكتور إحسان فى ديوان شعر الخوارج .

---

[1] - الخوارج فى العصر الأموى : د. نايف معروف ، ص ٢٥٠ .

هذه القلة المعهودة فى شعر الخوارج ربما يكون لها أسباب تسببت فيها منها : " إن الخوارج لم يتخذوا الشعر حرفة يتكسبون بها ولا تعاطوه فنًا للمباهاة والمساجلة ، بل كان وسيلة لغاية وتلبية لحاجة آنيّةٍ ليس غير ، ومن هنا فإنهم لم يحرصوا كثيراً على روايته أو إثباته " [1] .

ومما يدلل على ذلك أن شاعرهم الكبير وعالمهم ومفتيهم عِمران بن حطان " كان يرى أن الشعر وسيلة كريمة للتعبير عن العقيدة واستنهاض الهمم، وكان يربأ بالشعر أن يهان أو يستغل للتكسب والسؤال ، ومن الطرائف التى تروى فى هذا السبيل : أنه مر يوماً فوجد جمعاً من الناس يستمعون لشاعر ينشدهم شعراً فى المديح ، ولم يكن هذا الشاعر غير الفرزدق فانطلق عمران قائلاً :

أيها المادح العبادَ ليعطى
إن لله ما بأيدى العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم
وارْجُ فضل المقسّم العوّادِ
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه
وتُسمِّ البخيل باسم الجواد [2]

وربما يؤيد هذا أيضاً أن جميع قصائدهم لم تكن شعر مناسبات فلم نجد فيها الفخر أو المدح وإنما وجدنا كل شعرهم يدور فى فلك الجهاد والتقوى والاستبسال فى الحرب واحتقار الحياة الدنيا وابتغاء الشهادة ورثاء قتلاهم .

---

[1] – الخوارج فى العصر الأموى ، ص ٢٥٤ .

[2] الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ، د. مصطفى الشكعة ، جـ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨.

وربما يكون من الأسباب فى قلة شعرهم يعود إلى الحروب المتتالية التى شغلوا بها حياتهم القائمة على الجهاد ومناوءة الدولة فلم تفسح لهم هذه الحياة الدامية فرصاً لقول الشعر "[1] ، ولعل هذه الحروب المتواصلة أسفرت عن موت العديد من هؤلاء الشعراء . حيث كان أبرز شعرائهم فرسانهم فى الحروب أمثال قطرى بن الفجاءة وأم حكيم ، وليلى بنت طريف وأكثر هؤلاء مات فى ساحة المعارك ، أو كان متنقلاً بين القبائل هارباً مهدداً مثل عمران بن حطان مما يعد سبباً رئيساً لضياع شعر هؤلاء الشعراء .

وإذا أضفنا إلى ذلك " أن سيطرة القرآن على عقولهم ووجدانهم قد حال بينهم وبين الاهتمام الزائد بفن الشعر . فكانوا يقللون من قوله رغم شاعريتهم فهذا أحد شعرائهم يقول :

تركت الشعر واستبدلت منه
إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريكٌ
وودعتُ المُدامةَ والندامى [2]

وإذا عرفنا أيضاً " أن الخوارج كانوا فئة غير محببة إلى النفوس ، ينظر إليهم المجتمع كجماعة مارقة من الدين ، وإن أكثر الرواة والمحدِّثين فى ذلك العصر وما يليه كانوا إما من الشيعة أو من الأمويين ، أدركنا الأسباب

[1] – السياسة والأدب الأموى ، ص ١٢٢ .
[2] – الخوارج فى العصر الأموى : نايف معروف ، ص ٢٥٢ .

التى من أجلها أهملت أكثر آثار هذه الفرقة السياسية الدينية ، فلم يصلنا منهـا إلاّ النزر الضئيل ... " [1] .

فإذا أضفنا إلى هذه الأسباب أن الشواعر من النساء قليلات فـى كـل عصر من العصور وأن إنتاجهن الشعرى فى العادة يكون أقل من إنتاج الرجل بكثير بررنا ندرة شعر شواعر الخوارج واللاتى قد يضاف إليهن أعباءٌ حياتيَّة إضافية كقدر النساء دائماً .

ومع كل ذلك نستطيع أن نردد ما قاله الدكتور عبد القادر القط : " إن شعرهم فى أغلبه نفثات تلقائية قصيرة لا مجال فيها لكثيـر مـن التفـنن أو الإبداع. على أنه مع ذلك يستعيض عن الموهبة – فى كثير مـن الأحيـان – بحرارة العاطفة ونفاذ الرأى ، وإن اقترب أحياناً أخرى من النظم الذى يفتقـد الموهبة الشعرية الحقة " [2] .

ومما يدلل على أن الشعر كان فى أغلبه نفثات تلقائية غلبة المقطوعات الشعرية على شعرهم فمثلاً لا نجد فى شعر النساء ما نستطيع أن نطلق عليـه قصيدة شعرية غير قصيدة ليلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد بن طريـف ويصل عدد أبياتها إلى ثمانية وعشرين بيتاً مع اختلاف فى بعض الروايات ، وقصيدتين أخريين يبلغ عدد أبيات كل منهما أحد عشر بيتاً وبقية الشعر بعـد ذلك يتوزع على عشرين مقطوعة شعرية يتراوح عدد أبياتها بين بيتين وثمانية

---

[1] – الخوارج : تاريخهم وأدبهم ، على حقّال ، ص ٥٤ ، دار الكتب العلمية ، بيـروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م .

[2] – فى الشعر الإسلامى والأموى : د. عبد القادر القط ، ص ٣٧٧ .

أبيات . فالمقطوعات شعرائهم هى النمط الغالب على شعر شواعر الخــوارج خصوصاً والشعراء عموماً ، بل يوجد فى شعرهم الكثير من النتف أيضاً .

هذا الجنوح إلى القصر فى الشعر ربما يكون مطلباً بلاغياً يتناسب مع الحركة الملتهبة التى كانت تموج فى صدور رجال الخوارج ونسائهم الــذين كانوا متفرقين فى البلاد بعيدين عن أوطانهم وعن أقربائهم فأحسوا بالمعانـــاة مما جعلهم فى شغل شاغل عن تهذيب وتنقيح أشعارهم ، فجاءت أشعارهم فى مجملها ارتجالية عفوية تتسم بالقصر . كما أن " المقطعات قريبة التواصل مع بداية الفكر وتكوينه الأول ، فليس هناك بحث عن براهين منطقيــة ، ولــيس هناك تدبر فى كيفية إقناع الملتقى ، أو الولوج إلى عالمه الداخلى ، إنما الشعر يفيض لشعور الشاعر فحسب .

والمقطعات تقترب من شعور الإنسان ، ذلك الشعور المتغيِّر نتيجــة رياح المؤثرات الخارجية عليه ، فالإنسان فى اليوم الواحــد تهتــز مشــاعره كثيراً، وكل اهتزازة لها مؤثرها ، ولها وقعها ، ولها تأثيرها ولها إفرازهــا ، وكل منها تمثل تجربة مستقلة بذاتها ، وهكذا ؛ فإن المقطعات الشعرية تمثــل هذا التتابع الشعورى فى طبيعة الفرد " [1] وما كان أكثر الرياح المؤثرة علــى الخوارج إذ كانوا يتوقعون الخطر من كل مكمن .

فحياتهم لم تعرف الاستقرار على الإطلاق . يتنقلون من مكــان إلــى مكان متخفين فى النهار يتحركون فى الليل . فهم كما قال ابن حزم فى طوق الحمامة :

لم تستقر به دار ولا وطـــن
وما تدفأ منه قط مضجعـــه

---

[1] - المقطعات الشعرية ، ص ٧٣ .

وربما أدت المقطوعات الشعرية مطلباً أساسياً يتمثل فى إشعال روح الحماسة والجهاد لدى الخوارج لأن القصر أكثر ثباتاً واستقراراً فى قلب السامع وحافظته ، فهى أبقى لشبهها بالأمثال السريعة . وقد ساق أبو هلال العسكرى أمثلة عديدة تدور حول هذا الغرض . يقول : وقيل لبعضهم : لم لا تطيل الشعر ؟ فقال : حَسبُك من القلادة ما أحاط بالعُنُق .

وقيل للفرزدق : ما صيَّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال ؟ فقال : لأنى رأيْتها فى الصدور أوْقع ، وفى المحافل أجول وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ فقال : لأنها فى الآذان أولج ، وبالأفواه أعلق .

وقيل لبعض المحدثين : مالَك لا تزيدُ على أربعة واثنين ؟ قال : هُنّ بالقلوب أوْقع ، وإلى الحفظ أسرع وبالألسن أعلق ، وللمعانى أجْمع ، وصاحبُها أبْلغ وأوْجز " [١] .

ويحلل الدكتور يوسف حسين بكّار هذه الروايات فيقول شارحاً : " ونستطيع أن نستشف الأسباب التى كانت تمنع الشعراء من الجنوح إلى القصائد الطوال ، وتميل بهم إلى القصار ونصنفها فى ثلاثة : فنى ونفسى وشكلى . يتمثل السبب الفنى فى تهذيب القصيدة وتنقيحها بحذف فضولها وما قد يتسرب إليها من حشو ، وفى الخوف من الانزلاق فى السقط والزلل ، وفى

---

[١] – الصناعتين : لأبى هلال العسكرى ، تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، المكتبة العصرية – بيروت – لبنان ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

الاكتفاء بالقصار إذا أدت المعنى المراد ، وهذا هو الإيجاز الذى كان يبغيه النقاد ...

أما السببان الشكلى والنفسى فمتداخلان عند أكثر الشعراء الذين كانوا يعمدون القصار تعمداً – وهذا هو سرّ الشكلية – لرواج سوقها فى الحفظ والعلوق بالأفواه والأسماع ، والسيرورة بين الناس ، ولكى يكتب لها الخلود والديمومة . لكنهم كانوا يراعون عنصراً نفسياً يتمثل فى تجنيب السامعين السّآمة والملل ، وفى إحداث تأثير أكّبر وأقوى عن هذه الطرق " [1]

ونحسب أن شواعر الخوارج وشعراء الخوارج عموماً كانوا يركزون على الجانب النفسى ثم الشكلى ثم يأتى الجانب الفنى فى المؤخرة . فالمقطوعات عبرت عن حاجة ملحة أو موقف طارئ يستدعى القول ، أو تقرير للآراء الخارجية التى يؤمنون بها ، من إنكار للظلم وللنظام السياسى إلى الثورة على التهاون الدينى والفساد الخلقى والاجتماعى ، أو تقرير ستهانتهم بالحياة من أجل العقيدة " [2] ، أو الرغبة بالثأر من الكافرين والهجرة عن ديارهم . حتى نكاد نشعر ونحن نقرأ فى أشعارهم بإيمانهم بأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكراتهم وأن من عداهم من المسلمين ضال وملحد وكافر [3] . " فقد آمنوا بعقيدتهم واعتقدوا خطأ أن المسلمين ضلوا سواء السبيل ، أما هم فعلى الصراط المستقيم الذى تريده العناية الإلهية وهم يريدون أن يلووا

---

[1] – بناء القصيدة فى النقد العربى القديم : د. يوسف حسين بكار ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، دار الأندلس ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

[2] – السياسة والأدب الأموى ، ص ١٢٢ .

[3] الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ، ص ٤٣٦ .

المسلمين إليهم ، ولذلك يحاربونهم مستبسلين ، وكل منهم يريد أن يموت شهيداً في ساحة هذا الجهاد الديني الذي وهبوا أنفسهم له " [1] .

☯ ☯ ☯

وإذا انتقلنا إلى دراسة موضوعات الشعر عند شواعر الخوارج لفت نظرنا سمة عامة مشتركة بين شعر النساء والرجال على حد سواء وهي : " أن هذا الشعر لم ينقل إلينا عقائد الخوارج الرئيسة التي التزموا بها ، فلم يحدثنا عن رأيهم في الإيمان ، أو بارتكاب الكبائر ، والوعد والوعيد ، ولا تعرّض لقضية الإمامة وغيرها من العقائد الأخرى التي أصبحت فيما بعد جزءاً من سلوكهم الديني والسياسي معاً كما لم يشيروا بشعرهم – لا من قريب ولا من بعيد -- إلى الفرق الخارجية التي افترقوا إليها إلاّ ما كان من أمر القعود الذي أخذت به قعديّة الصّفْرية " [2] .

حتى الحديث عن القعود ورد في أشعار الرجال ولم يرد فيما جاء عن النساء على الإطلاق .

وعدم إفصاح الخوارج عن آرائهم واتجاهاتهم السياسية أوقع المتلقي في لبس شديد عند قراءة أشعارهم والتي كثيراً ما يعجب بها ويظنها دعوة إلى الجهاد في سبيل الله ضد المشركين الكافرين وهو لا يدري أن هذا الجهاد كان لشق عصا الطاعة ضد أئمة الأمة وأن المشركين والكافرين الذين يقصدونهم هم عامة المسلمين الذين يخالفونهم في الرأي ومنهم الكثير من الصحابة المقربين من الرسول ﷺ أمثال علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعاً .

---

[1] – التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص ٩١ .

[2] – الخوارج في العصر الأموي : د. نايف معروف ، ص ٢٨٦ .

أما عن أغراض الشعر عند النساء فإنه يقتصر على ثلاثة أغـــراض فقط تتصل بحياتهم اتصالاً مباشراً وهي : الدعوة للجهـــاد وحـــب الشـــهادة ، والرثاء ، والاستعطاف . لا يخرجون عن هذه الأغـــراض علـــى الإطـــلاق بخلاف شعر رجالهم الذى فيه بعض قصائد المديح لقادتهم أو الهجاء لأعدائهم. وأكثر ما قالوه فى الشعر كان فى الرثاء الـــذى بلـــغ ســـبع عشـــرة قصـــيدة ومقطوعة من مجموع ثلاث وعشرين قصيدة وأربع مقطوعات فـــى الجهـــاد ومقطوعة واحدة فى الاستعطاف ، ومقطوعة أخرى فى الرجـــوع عـــن رأى الخوارج .

فإذا بدأنا **بشعر الجهاد وحب الشهادة** لأنه هو الغـــرض الأول عنـــد الخوارج وجدنا أن شعرهم انطبع بطابع الجهاد ، وتمجيد الأبطال والإ شـــادة بشجاعتهم ، وتفانيهم فى الاستشهاد وطلب الثواب والجنـــة واســـتعداب مـــا يرتكبون من فظائع تقرباً إلى الله وزلفى . وهم عندما يقدمون أنفسهم لله نجـــد أن الموت هو غايتهم القصوى وكل ما هو دون ذلك تقصير وجبن . ومن هنا نجد شاعرهم البهلول بن بشر الشيبانى يقول حريصاً على الموت حرص غيره على الحياة [1] :

من كان يكـــره أن يلقـــى منيتـــه
فالموت أشهى إلى قلبى من العَسَلِ
فلا التقدّمُ فى الهيجاء يُعْجلنى
ولا الحِذارُ ينجِّينـــى مـــن الأجـــل

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ٢١٩ ، دار الشروق .

" فتكاد رغبتهم فى الموت فى سبيل عقيدتهم تغلب رغبتهم فى تحقيق أهدافهم التى خرجوا انتصاراً لها ، وحتى ليصبح رفض الحياة وطلب الموت لديهم هدفاً يطلب لذاته لا يعتوره حزن أو أسف ، ولا يسلم إلى يـأس حتـى لنشعر أن الموت عندهم على هذه الصورة لون من ألوان الأمل وضرب مـن الأمانى لأنه لا يعنى لديهم غير دخول الجنة ولقاء الإخوان والأبرار الأتقيـاء الذين تَقدَّموهم على الطريق " [1] .

إن هذه النزعة الشديدة نحو الاستشهاد هى ما يميّز عامة الخـوارج – خاصة فى بداية عهدهم – عن سائر الفرق الإسلامية ، حيث رأت الشيعة أن التَقيَّة واجبة عندما يكون الخروج طريقاً للهلكة لـيس إلا ، ورأت السـنة أن الصبر على المكاره هو طريق الخلاص [2] .

ولم يكن حب الموت والاستشهاد هو السمة الغالبة فى شعر الجهاد بل يصاحبه دائماً السأم من الحياة ، فنجد أن الخوارج قد عافوا الحيـاة وملّوهـا واستصغروها ، وتعلّقوا بأخرى تعشَّقوها ، ولم يروا فى العالم الأول إلاّ جسر عبور إلى العالم الآخر . فنجد كعب بن عميرة يأمل هذين المبـدأين ، حـب الموت فى المعركة والضيق من الدنيا التى يعيش فيها يقول : [3]

لقد فاز إخوانى فنالوا التـى بهـا
نَجوْا من عـذابٍ دائـم لا يُفتَّـرُ
أبـى الله إلاّ أن أعـيش خلافهـم
وفى الله لى عِزٌ وحرزٌ ومنصـرُ

---

[1] – الفرق الإسلامية : د. نعمان القاضى ، ص ٤٣٧ .
[2] – الخوارج : على جفّال ، ص ٨٢ .
[3] – شعر الخوارج ، ص ٧٤ ، دار الشروق .

ويا رب هب لى ضـــربةً بمهنَّـــدٍ
حُسامٌ إذا لاقـــى الضـــريبةَ يُهْبَـــرُ

فقد طال عيشى فى الضلال وأهله
أخافُ التى يخشى التقـــىُّ وأحـــذرُ

أخاف صروف الدّهر إنى رأيتهـــا
تروح على هـــذا الأنـــام وتُبْكـــرُ

وخارجىّ آخر يملّ الحياة التى طالت متشوقاً للجنةِ التى سيلقى فيهـــا من سبقوه من شهداء الخوارج . يقول :

يا نفسُ من طول الحياة ملِّـــى
وعيشـــك المنقطـــع المـــولّى
علِّـــىَ ألقـــى عاصـــماً لَعَلِّـــى
فـــى جنَّـــة عاليـــة وظـــلٍّ
وبيهســـاً وكَهمْـــسَ المُصـــلِّى

والأعجب من هذا أن فكرة السأم من الحياة والتهافت علـــى حيـــاض الموت لم تكن سمة لرجالهم فقط ولكنها سمة ظهرت عند نسائهم أيضاً . حتى أننا نجد أم حكيم صاحبة قطرى بن الفجاءة . تســـتعجل المـــوت وتســـتجدى الشهادة وترى رأسها عبئاً ثقيلاً فوق جسدها فتتمنى من يريحها من هذا العبء الثقيل الذى يربطها بأسباب حياة فانية لا تريدها . تقول أم حكيم [١] :

---

[١] - شعر الخوارج ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، دار الشروق .

أحمل رأساً قـد سـئمت حملـه

وقـد مللـت دَهْنـه وغسْـلهُ

ألا فتـى يحمـل عنِّـى ثقلَـه

" وهكذا تستحيل الحياة لديهم ذميمة دنيئة مملة ولا خير فيهـا حتـى ليتنكبها كل منهم زاهداً فيها طالباً الموت حتى يلتقى بالله وبإخوانه فى الجنان [1] " حتى أن أمّ حكيم المشهود لها بالحسن والجمال ترى أن كمـال الحسـن ألاّ يمتهن هذا الجسم الجميل . بل يقدّم قرباناً لله غير ممتهن . قالت وقد خطبهـا جماعة من أشراف الخوارج فردتهم [2] :

ألا إن وجهـاً حَسَّـنَ اللهُ خَلقـهُ

لأجْدَرُ أن يُلفى به الحُسْنُ جامعـاً

وأُكرِمُ هذا الجِرْمَ عـن أن ينالَـه

تـوَرّكٌ فحـلٍ هَمُّـهُ أن يُجامِعـاً

وترك الدنيا والاندفاع نحو الآخرة لم يقتصر على أم حكيم فقـط بـل تتعدد النماذج فى نساء الخوارج فيجرى الشعر على ألسـنتهن معبـراً عـن رغبتهن . فهذه مريم الجعيداء زوجة أبى حمزة الشارى . الذى قام بمعركـة قديد بالقرب من المدينة والتى قتل فيها خلق كثير تقول مريم : [3]

أنـا الجعيـداء وبنـت الأعلـم

من سال عن اسمى فاسمى مريم

بعتُ سـوارى بسـيف مخْـذَم

---

[1] – الفرق الإسلامية : د. نعمان القاضى ، ص ٤٤٠ .

[2] – شعر الخوارج ، ص ١٤٢ : والجرم : الجسم ، توَرّك : كناية عن الجماع .

[3] – شعر الخوارج ، ص ٢٤٥ ، دار الشروق .

فالجعيداء باعت كل ما يربطها بالدنيا واستبدلته بكل ما يربطها بالآخرة فتندفع فى المعركة بجانب زوجها ، فيقتلان معاً على مشارف مكة [1] .

نموذج آخر لامرأة تهجر زوجها وتترك بيتها مرتمية بين أحضان الخوارج مفضلة الحياة تحت صليل السيوف على حياة هادئة ناعمة ضاربة باستغاثات زوجها عرض الحائط طالبة منه أن يستبدلها بامرأة أخرى . فعندما نجد مجاشع البكرى يحترق أسى ولوعة لفراق زوجته عميرة فيقول :

وجداً يصاحبنى لعلَّ صبابةً
منها تردُّ خليلةً لخليلِ
فلئن قتلتِ ليقتلن قتيلكم
فتيقنى أنىَّ قتيلُ قتيلِ

نجد عميرة لا تعبأ بأساه ولوعته ، راغبة فى سعادة تراها بين أسنة الرماح . تقول :

أبلغ مجاشع إن رجعت فإننى
بين الأسنةِ والسيوفِ مقيلى
أرجو السعادة لا أحدث ساعة
نفسى إذا ناجيتها بقفولِ
ووهبت خدرى والفراشَ لكاعبٍ
فى الحىِّ ذات دمالج وحجول

---

[1] – الفرق الإسلامية ، ص ٤٣٢ .

وهكذا نجد أن المرأة الخارجية لم تكن شاعرة فقط تكتفي بالتعبير والتسجيل ، بل هي نفسها الشاعرة والمقاتلة في نفس الوقت ، بل والمجاهدة ولكن ضد من ؟ ضد جموع المسلمين لتشترك مع غيرها من الرجال في ترويع المسلمين وتمزيق وحدتهم ، مؤمنة بمبادئ تتسم بطابع الغلو بعيدة عن روح الاعتدال .

" فإذا انتقلنا **إلى موضوع (الرثاء)** وجدنا أن هذا الغرض يشغل معظم شعر الشواعر الخارجيات كما أسلفنا حتى أنه يمكن القول أن كثرة الرثاء في شعر الخوارج عموماً والنساء خصوصاً كان نتيجة طبيعية لحياتهم التي كانت سلسلة متصلة من المعارك و الحروب فكثر القتل فيهم بسبب ذلك وكذلك لقلة عددهم " [1] .

فإذا أردنا أن نوضح اتجاهات الرثاء عند المرأة الخارجية وجدناه يأخذ عدة اتجاهات منها :

١- **رثاء المَثَل عندهم :** ويتمثل هذا في أبي بلال مرداس بن أديّة. هذا الرجل استمد مثاليته من ورعه وتقواه وعقله ، ومن بطولته وفروسيته حيث استطاع أن يقود مجموعة مكونة من أربعين رجلاً وينتصر بها على جيش مكون من ألفي رجل مقاتل . كما يستمد مثاليته أيضاً من موتته التي ماتها ، حيث هجم عليه هو وزملائه جيش زياد فقتلوهم جميعاً أثناء صلاة الجمعة . ومثلوا بمرداس ، فأثار مقتله على هذا النحو الفظيع من الغدر حفيظة الخوارج ودفعهم إلى الاستماتة في الجهاد .

---

[1] – الخوارج : د. نايف معروف ، ص ٢٦٦ .

ومن هنا صار مرداس رمزاً رائعاً ومثلاً يحتذى عند جميع الخوارج رجالاً ونساءً . فإذا ما وجدنا عمران بن حطان يتوجه بالرثاء لأبى بلال متمنياً أن يموت كما مات لأنّه يرى فيه المثل حيث يقول :[1]

لقد زاد الحياة إلىّ بغضاً
وحُبّاً للخروج أبو بلالِ

دعروةُ بعده سقياً ورعياً
لعروة ذى الفضائل والمعالى

أحاذر أن أموت على فراشى
وأرجو الموت تحت ذرى العوالى

ولو أنى علمت بأن حتفى
كحتفِ أبى بلالٍ لم أبالِ

فمن يكُ همّه الدنيا فإنى
لها والله ربِّ البيت قالى

فنجد أم الجراح العدوية تؤمن بنفس المثل فتراه فى أبى بلال مرداس بن أديّة وأخيه عروة بن أديّة الذى قتل أيضاً فتتوجه بالحديث إلى زياد بن أبيه منذرة متوعدة فتقول[2] :

وما بعد مرداسٍ وعروةَ بيننا
وبينكم سوى عطر مَنْشِمِ

فلستَ بناجٍ من يد الله بعد ما
هرقت دماء المسلمين بلا دمِ

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

[2] - شعر الخوارج ، ص ٦٧ .

كما نجد امرأة أخرى من بنى سليط تتوجه بالسقيا لمرداس أصحابه الشراة الذين قدّموا أنفسهم هدية إلى الله عند التقاء الجيوش تقول : " [1]

سقى الله مرداساً وأصحابه الألى
شروا معه غيثاً كثير الزماجر
فكلهم قد جاد لله مخلصاً
بمهجته عند التقاء العساكرِ

٢- أما الاتجاه الثانى فى رثاء الشواعر الخارجيات فيتمثل فى **إظهار الفرح والسرور لأن القتيل نال الشهادة التى كان يتمناها وعمل من أجلها** حيث يعتقد الخوارج أن جميع مخالفهيم من المسلمين كفارٌ فإذا ما قتل أحدهم على يد هؤلاء الكفرة فى زعمهم فهو فى الجنة التى كان يتمناها . ولهذا إذا كنا نرى المرأة – أى امرأة – ترتاع ويصبح فؤادها فارغاً إذا مات لها ابن، فالوضع هنا يختلف مع هذه المرأة . فعمرة أم عمران الراسبى قد وجدت فى مقتل ولدها وفلذة كبدها ، استجابةً لدعوته التى طالما رددها فى سرّه وعلانيته ليرزق القتل بأيدى ملاحدة غدرٍ . تقول عميرة وهى ترثى ابنها وقد قتل مع نافع بن الأزرق يوم دولاب . حيث ظل يتبادل الضربات مع الحجاج بن باب حتى قتلا معاً [2] :

الله أيّد عمرانا وطهّره
وكان عمرانُ يدعو الله فى السَّحرِ
يدعوه سرًا وإعلانا ليرزقه
شهادة بيد ملحادةٍ غُدُرِ

---

[1] – شعر الخوارج ، ص ٦٧ .

[2] – شعر الخوارج ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، دار الشروق .

ولىّ صحابته عـن حـرّ ملحمـةٍ

وشدَّ عمرانُ كالضرغامةِ الهُصـرِ

أعنى ابن عمرة إذ لاقـى منيتّـه

يوم ابن باب يحامى عَوْرَةَ الـدبرِ

وهذه امرأة أخرى من الخوارج قُتل أبوها وأخوها وزوجهـا وأُمهـا وعمها وخالتها مع الضحاك بن قيس الشيبانى الحرورى إلاّ أنها كانـت أشـد إيماناً بقضية الخوارج وترى أنهم لم يتخذوا هذا الموقف ولم يعّرضوا أنفسهم للشهادة إلاّ إحياءً للدين الذى مات وللسنة التى انتهت . ومن هنا فبرغم حزنها الشديد على قتلاها وهم كُثرُ إلاّ أنها ترى أنهم لم يغبنوا بالموت ، لأنهم ماتوا صابرين عند التقاء السيوف ، ولم يجبنوا ولم يهربوا فى سبيل مرضاة الله فى زعمها فلهذا كان الاستشهاد منةً من منن الله عليهم تقول [1] :

مَـن لقلـبٍ شـفّه الحَـزَنُ

أو لـنفسٍ مـا لهـا سـكنُ

ظعـن الأبـرارُ فـارتحلوا

خيـرهم مـن معشـرٍ ظعنـوا

معشـرٌ قضـوا نُحـوبهم

كـلُّ مـا قـد قـدّموا حسـنُ

صـبروا عنـد السـيوف فلـم

ينكلـوا عنهـا ولا جَبُنـوا

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٣٧ ، دار الشروق .

فتيـــــةٌ بــــــاعوا نفوســــــهم
لا وربِّ البيـــت مــــا غبنــــوا
ابتغـــــوا مرضـــــاة ربّهــــــم
حـــين مـــات الـــدين والســـننُ
فأصــــاب القـــوم مـــا طلبـــوا
منّـــــةٌ مــــا مثلهــــا مـــــننُ

٣- وهناك تيار ثالث فى الرثاء يتمثل فى أن حزن المرأة الخارجيـة علـى ذويها لم يمنعها **من تمنى الأخذ بالثأر له** ، أو محاولة المرأة أن تأخـذ الثأر بنفسها . فنجد عند المرأة الخارجية إرادة صلبة ، وإصراراً لا يلين أمام العدو ، فهى لا تعترف بالهزيمة أبدا ففيها أنفة وعزّة وكبرياء وثبات على الموقف .

فهذه أخت الحازوق الحنفى أحد ولاة نجدة ترثى أخاها الذى قُتل على يد بعض أعدائه ، تنعى فيه فروسيته وتأسى للطريقة التى مـات بهـا حيـث حُوصر بين جبال الطائف وقُتل رمياً بالحجارة وهو يقول : " أتقتلوننى قتـل الزناة ؟ ليبارزنى منكم من شاء " ، فكانت تتمنى أن يقابل أعداءه فـى أرض فسيحة حتى يستطيع أن يصول ويجول مثبتاً لفروسية يتميز بها ، ولكم نجـد من الإصرار والعزيمة عند هذه المرأة ؛ فإن الأمر عندها لم ينته بقتل أخيهـا الحازوق . ولكن ترى أن فى الصف فرساناً آخرين يسـتطيعون أن يأخـذوا بثأره أمثال : حوشب وأبى جسر ، تقول أخت الحازوق الحنفى [١] :

---

[١] – شعر الخوارج ، ص ٨٩ ، دار الشروق .

أعينىَّ جودا بالدموع على الصدرِ

على الفارس المقتول فى الجبل الوعرِ

فإن تقتلوا الحازوق وابن مطـــرّف

فـــإنّ لـــدينا حوشـــباً وأبـــا جســـرِ

أقلب عينى فى الركاب فـــلا أرى

حزاقاً وعينى كالحجاة مـــن القطـــر

ومن يَعْتم العامَ الوشـــيك ولاحقـــاً

وقتل حزاقٍ لا يزال عـــالىَ الـــذكْرِ

تعـــاوره أســـياف قـــوم تعـــوّدوا

قراعَ الكماة لا خنـــوسٍ ولا ضُـــجْرِ

فيـــالهفتى ألا تكـــونَ لقيـــتهم

بصحراء لا ضَيْق المكرّ ولا وَعْـــرِ

فلو كان لى ملك اليمامة سَـــوَّمت

فوارسُ يسبونَ العذارىَّ مـــن شُـــكْرِ

ولو كان لى ملك اليمامة قد غزت

قبائـــلَ دوسٍ كـــلُّ قنبلـــةٍ شُـــقْرِ

فإن لا أنل من دوس ثأرى بفتيـــةٍ

مصاليت لم يكسرهم حَـــدَث الـــدّهْرِ

فإنّ قريشاً كـــان مقتـــلُ حـــازقٍ

بأيديهم فاطلب بـــه قـــاطن الجحْـــرِ

ففى قتلهم مثل الذى نال من حظى

بقتل حزاقٍ فى العلاءِ وفـــى الـــذكْرِ

وربما يظهر هذا التيار أكثر عند الفارعــة بنــت طريــف الشــاعرة العباسية الوحيدة من بين شواعر الخوارج حيث قتل يزيد بن مزيد أخاها الوليد بن طريف قائد الخوارج فى عهد الخليفة هارون الرشيد .

فنجد الفارعة بنت طريف ترثى أخاها الوليد بن طريف ، ولأنها كانت فارسة ركبت الفرس وحملت السلاح وتقدمت الجيوش لتأخذ بثأر أخيها ، فقــد جاءت نغمة التحسر والحزن أضعف عندها منها عند أخت الحازوق ، ولكــن الأنفة والكبرياء عندها أقوى . حتى ظننا أنها حولت رثاءها لأخيها إلى مديح. فهى كما يقول د. نايف معروف : " وكثيراً ما يتخذ الشاعر الخارجى الرثــاء وسيلة لمدح الميت فيصب عليه المزايا المألوفة فى المدح ، فهو كالليث فــى عرينه ، وكالبدر بين كواكبه ، وكالإبل فى صبره ، وهو كالسيف الذى تنبــو لهيبته سيوف الأعداء ، وغير ذلك من الصــفات الممدوحــة فــى الرجــال حينذاك"[1].

فالفارعة ترى أن الأرض لم تتضمن جثة الوليد بن طريف لأن الوليد أعز من أن تحوى جثته الأرض ، فبطبيعة الحال لا يكــون الوليــد إلاّ فــى السماء، لأن هذا ما يتناسب مع شخصه وكذلك السيوف التى قُتل بها لو عقلت لهابته . وخافت من مواجهته وتحولت إلى حد غير قاطع . تقول [2] :

ذكـــــرت الوليــــد وأيّامــــــه
إذ الأرض مــــن شخصــــه بلقـــعُ
فأقبلــــت أطلبــــه فــــى الســـما
كمـــا يبتغــــى أنْفُـــهُ الأجْـــدَعُ

[1] – الخوارج فى العصر الأموى ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

[2] – معجم النساء الشاعرات:عبد الأمير مهنا،ص ٢٣٣، ضحى الإسلام ، جــ٣ / ٣٤٧.

أضـــاعك قوُمـــك فليطلبـــوا

إفـــادة مثـــل الـــذى ضـــيّعوا

لـــو أن الســـيوف التـــى حَـــدُّها

تصـــيبك تعلـــمُ مـــا تصـــنعُ

نبـــت عنـــك إذ جُعلـــت هيبـــةً

وخوفـــاً لصـــولك لا تقطـــعُ

ثم تنتقل الفارعة بنت طريف فى قصيدتها الطويلة التى تمثل أطـول قصيدة عند شواعر الخوارج إلى تأبين أخيها وذكر مآثره ، فتتحدث عنه فـى كبرياء واضح يتناسب مع منزلة الوليد . فقبر الوليد ليس قبراً عادياً بل هـو بمثابة جبل عال فوق الجبال ، لأنّه لم يحتوِ على رجلٍ عادى ، ولكنه تضمَّن رجلا اتسم بكل صفات المروءة مثل : الجود ، الشجاعة ، وحصافة الـرأى ، تقول :

بتـــلّ نباثـــاً رســـمُ قبـــر كأنّـــه

على جبل فـوق الجبـال منيـف

تضـــمَّن جـــوداً حاتميًّـــا ونـــائلا

وســـورة مقـــدامٍ ورأى حصـــيفِ

ثم تقول : مستنكرة على الأرض كيف جرأت أن تتضمن فتىً هو رمزٌ للمعروف مع علمها أن هذا الشخص ليس شخصاً عادياً فهو ليس ضـعيفاً ولا ابن ضعيف ، ثم تذهب إلى أنها لن تتحرك من مكانها حتـى تسـمع جوابـا واضحاً . تقول :

ألا قاتل الله الجَدْثَ كيف أضمرت

فتى كان للمعروف غيــر عيــوفِ

وقد علمت أن لا ضعيفاً تضــمنت

إذا عظمُ المرزى ولا ابن ضعيف

فإن لم تجبنى دمنـــةُ هـــى دونـــه

فقد طال تسليمى وطـــال وقــوفى

ثم تنتقل متحدثة عن مآثره مستخدمة الفعل المضارع فى أكثــر مـــن موضع للدلالة على أن مآثره ما زالت حيّة ، فتصفه بالتقوى والكـــرم وحـــب القتال وكثرة صولاته وجولاته فى المعارك حتى كاد أن يزهق روح المـــوت نفسه . تقول :

فتى لا يلوم السيف حتـــى يهـــزه

على ما اختلى من معصم وصليفِ

فتى لا يحب الزاد إلاّ من التقـــى

ولا المال إلاّ مـــن قنـــا وســـيوفِ

ولا الذخر إلاّ كل جرداء صَــلْدَمِ

معـــاداة للكـــرّ بـــين صـــفوفِ

ولا الخيل إلاّ كلّ جـــرداء شـــطبةٍ

وأجود عالى المنســـجين عَـــروفِ

حليف الندى إن عاش يرضى به الندى

وإن مات لا يرضى الندى بحليفِ

وما زال حتى أزهق المــوتَ نفسَــه

شــجاً لعــدوٍ أو لجــاً لضــعيفِ

ثم تتجه إلى تهديد يزيد بن مزيد ، فتذهب إلى أنه لن يزيل أثر مــوت الوليد إلاّ معركةَ كالتى قتل فيها وهى دعوة للأخذ بالثأر تقول :

فــإن يــك أرداه يزيــد بــن مزيــد

فَرُبَّ زحــوفٍ فضــها بزحــوفِ

ثم يظهر عندها الإحساس بالفقد فتصفه بأنه كان ربيع العمــر ، فــإن ذهب من الدنيا فلا ربيع ، وتتعجب كيف لشجر الخابور أن يورق كأنــه لــم يحزن ويجزع على غياب ربيعه . تقول :

فقــــدناه فقـــدان الربيـــع فليتنـــا

فــــديناه مــــن فتياننـــا بـــألوفِ

فيا شــجر الخــابور مالــك مورقــاً

كأنّك لم تجزع على ابن طريــف

ثم بدأت تنعى حظ قومها من توقع تكالب النوائب والمصائب علــيهم بالذات بعد أن غاب من ليلهم بدره ، ومن نهارهم شمسه . وتوجّه أسدُهم فوق نعشه إلى مثواه الأخير تقول :

ألا يـــا لقـــومى للحِمـــام وللبلـــى

وللأرض هَمَّــتْ بعــده برجُــوفِ

ألا يـــا لقـــومى للنوائـــب والـــرّدى

ودَهْـــرٍ مُلِـــحٍّ بـــالكرام عنيـــفِ

وللبدر من بين الكواكـــب إنْ هـــوى

وللشمس هَمَّــتْ بعــده بكُســوفِ

ولليـــث فـــوق الـــنعشِ إذ يحملونـــه

إلـــى حفـــرةٍ ملحـــودةٍ وســـقوفِ

ثم بدأت تسترجع يوم وفاته ، وكيف بكت عليه القبيلة وكيف خرجت النساء سافرات جزعاً وحزناً عليه يندبن فيه مآثره المعهودة . تقول :

بكـــت تغلـــب الغلبـــاءُ يـــوم وفاتـــه

وأبرز منهـــا كـــل ذات نصـــيفِ

يَقُلن وقـــد أبـــرزن بعـــدك للـــورى

معاتد حَلْيٍ مـــن بُـــرى وشـــنوفِ

كأنّك لم تشـــهد مصـــاعاً ولِـــم تقـــم

مقاماً من الأعـــداء غيـــر خفيـــفِ

ولم تشـــتمل يـــوم الـــوغى بكتيبـــةٍ

ولم تبدُ فى خضراء ذات رفيـــفِ

ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقـــح

وســـمر القنـــا ينكزنهـــا بـــأنوفِ

وفى نهاية القصيدة تلقى السلام على قبره مؤمنة أن الموت لا يتخيـرّ من الناس إلاّ الشرفاء :

عليـه سـلام الله وقفـاً فـإننى
أرى الموت وقاعاً بكـلِّ شـريفِ

٤- ثم يظهر تيار أخير فى الرثاء عند شـواعر الخـوارج **يتميز بالتفجع والحسرة** . فإذا كان الدكتور نايف معروف يقول : " وخلاصة القول فى رثاء الخوارج أنّه جاء خالياً من التفجّع الحاد ومن أنّة الحزن الدائمة فلا تفتت أكباد ، ولا وهن عند الفجيعة ، لأن ما صار إليه شهداؤهم كان خير عزاء لهم ، كما جاء بعيداً عن نزعة القنوط أو اليـأس المريـر " [١] . أو يقول : " ومما تجدر الإشارة إليه أن مراثى النساء لذويهم جاءت أيضـاً فى أكثرها خلوا من التفجع وأنّة الحزن الحادة لدرجة يصعب معها تمييز رثاء شواعر الخوارج من رثاء شعرائهم " [٢] . فمليكة الشيبانية تـدحض هذا الكلام حيث تشتد حرارة الرثاء عندها لتبلغ الذروة فتقدم لنا ملحمـة رثائية فى موت أخيها الضحاك بن قيس وعمها مما يجعلنا نقتـرب مـن عالم الخنساء فى رثاء أخيها صخر . وكأنّها تحقق كلام ابن رشيق فـى العمدة " وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجُّعُ بـيِّن الحسـرة ، مخلـوط التلهف والأسف والاستعظام ، إذا كان الميت ملكا أو رئيسا كبيراً " [٣] .

---

[١] - الخوارج فى العصر الأموى ، ص ٢٧١ .
[٢] - الخوارج فى العصر الأموى ، ص ٢٦٨ .
[٣] - العمدة ، ص ٣٥٨ .

وهذا ما وجدناه عند مليكة لأن أخاها كان أميراً لفرقة من الخوارج فى أواخر الدولة الأموية ، فبكت عليه أحرّ البكاء ، فارتفعت بشعر الرثاء حتى جعلته أجود أشعار شواعر الخوارج . فكأنها تبرهن على كلام ذلك الأعرابى حينما سُئل " ما بالُ المراثى أجود أشعاركم ؟ ، قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق " [1] .

فكأن كبد مليكة يحترق أمامنا وهى ترثى أخاها وعمّها حتى وجد من يقول عنها : " ما رأيت أشد كمداً من امرأة من بنى شيبان قتل ابنها وأبوها وزوجها وأمها وعمتها وخالتها مع الضحاك الحرورى ؛ فما رأيتها قط ضاحكة ولا مبتسمة حتى فارقت الدنيا[2].

أو إذا كان " الندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التى تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويُعْوِلون مسرفين فى النحيب والنشيج وسكب الدموع " [3] . فنجد مليكة تتمزق أسى وحسرة ، وقلبها يعتصر مرارة ويحترق لمقتل أخيها حتى وإن أشارت إلى مآثره ، فهى تشير بطريقة آثرة . تقول نادبة أخاها متحسرة عليه بصوت عالى الرنين [4] .

قولى مُليكُ عليك بالصبر
تستوجبين فضائلَ الأجرِ
قولى فإنّك غير كاذبة
يا عُدّتى لنوائب الدهرِ
أورثتنى كمدا يؤرقنى
وتلهفاً وحرارةَ الصدرِ

---

[1] – البيان والتبيين ، جـ٢ ، ص ٣٢٠ .

٢– أخبار النساء فى العقد الفريد ، جمع : عبد مهنا وسمير جاد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١٤١٠ – ١٩٩٠م .

[3] – الرثاء : د. شوقى ضيف ، ص ١٢ .

[4] – شعر الخوارج ، ص ٢٣٨ ، دار الشروق .

ومـــرارة فـــى العـــيش دائمـــة

وحـــرارة كحـــرارة الجمـــرِ

ذهـــب الـــذى قـــد كـــان يأمرنـــا

بـــالخوف والمعـــروف والـــذكرِ

ثم تستدر عينها البكاء حيث جمدت من كثرة الحزن ، مشركة معها فى عويلها ونحيبها جميع النساء الشاريات اللاتى اشتركن معه فى الحرب ، حيث موته سيؤثر فى الجميع تقول [1] :

يـــا عـــين جـــودى بالـــدموع

بواكـــف حتـــى الممـــاتْ

قـــولا لمـــن حضـــر الحـــروب

مـــن النســـاء الشـــارياتْ

أمســـين بعـــد غضـــارةٍ

ونعـــيم عـــيشٍ مثبتـــاتْ

مـــن بعـــد عـــيش نـــاعم

صـــارت عظـــامهمُ رفـــاتْ

وإذا المنيّـــــةُ أقبلـــــتَ

لـــم تغْـــنِ أقـــوالُ الرثـــاةْ

كنـــت المؤمـــلَ والمرجـــىَ

فـــى الأمـــور المعضـــلاتْ

كنـــت المـــؤامر والمـــؤازر

والمطالـــب للتـــراتْ

[1] - شعر الخوارج ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، الشروق .

ثم تتحدث عن جلل المصيبة وعظم الفجيعة ، معددة بعض المـآثر ، تقول فى أبيات ملأتها دموعاً وبكاءً ، تسأل وتجيب : [1]

مـا بـال دمعـك دائـم السـجم
مثل الجمان وَهَـى مـن الـنظمِ
جلَّـت مصـيبتنا وقـد عظمـت
لمّـا فجعـت بسـيدٌ ضـخمٍ
حلـوِ الشـمائل حـين تخبـره
حَسَـنِ السـريرة ماجـدٍ شـهمِ
يصـل القرابـة والجـوار إذا
قطـع القرابـة صـاحب الظلـمِ
فلأبكينـك كلمـا وخـدت
عِـيس بأرجلهـا علـى رسـم
ولأبكينـك عنـد مجتمـع الـ
أمـلاء عنـد تطـاول الخصـم

ولم تكتف مليكة برثاء الأخ فقط ، فالمصيبة عنـد الخـوارج دائمـاً مضاعفة لا تقتصر على فقد عزيز واحد ، ولكن لكثرة المعـارك والحـروب التى يعيشون فيها ، ونظراً لاستبسالهم فى سبيل قضيتهم نجد أن أمر المـوت عندهم هين ، ولكن تبقى مرارة الفراق وبالذات عند النساء ، لأن موت الرجل فى مجتمع معزول غير آمن شىء غير هيّن . فالمرأة حتما محتاجة للرجـل

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٤١ ، دار الشروق .

تستعين به فى كل شىء ، فما بالنا إذا كان الرجل أميراً أو سيّدا ، فالبكاء عليه يتضاعف لأنه من الصعب أن يسدّ مسده أحد .

ومن هنا وجدنا نغمة الحزن شديدة عند مليكة الشيبانية لا على أخيهـا فقط الذى فقدته ولكن على عمها أيضاً الذى لا يَقلّ بطولة ومروءةً عن أخيها . فنجدها تبكى بكاءً مريراً حاراً على عمها . ولا تكتفى ببكائها وحـدها ولكـن تطلب البكاء من نساء ورجال الخوارج نظراً لأن المصيبة تعم الجميع . فتقول بعد أن خرجت سافرة حاسرة الرأس والهة على موت عمها متمنيـةً أن لـو كانت تملك ما تدفع به الموت عن عمها ، ثم تعدد بعض مآثره [1] :

ما بـال دمعـك يـا مُليكـة جـارِ
أم مـا لقلبـك لا يقـر قـرارِ

أم ما لنفسـك لـيس يسـكن حزنهـا
لـيلا ولـيس نهارهـا بنهـارِ

جزعاً على من كـان يجمـع شـملنا
ونعـده لنوائـب وعثـارِ

لو كنتُ أملك دفـع ذلـك لـم تكـن
يـا عـم بـين نضـائدٍ وغبـارِ

ألقيـتُ جلبـابى لعظـم رزيتـى
وبـرزت سـافرةً بغيـر خمـارِ

زرت المقابر كـى أسـلى عبرتـى
هيهات ممـن زرتُ بُعْـد مـزارِ

---

[1] - شعر الخوارج ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

فلتبــك نســوانُ الشـــراة بعبـــرةٍ

عند الحروب وكـل كهـلٍ شـارِ

وليبكـه المــولى وطالـبُ حاجــة

عند العشاء ، وكل ضـيف طــارِ

أيــن الــذين إذا ذكــرت فعـــالهم

عرفــوا بحســن عفافــةٍ ووقــارِ

أيــن الــذين إذا أتـــاهم ســائلٌ

بـذلوا لــه أمــوالهم بيســارِ

أيــن الــذين إذا ذكرنـــا دينهم

قالـت عشـائرهم هُـمُ أخيـارى

ثم نجدها تندبه وتتحسر عليه فى مقطوعة أخرى ، تندب فيـه أمـره بالمعروف ومؤازرته لكل صاحب حاجة ، تندب فيه فضيلته وبصيرته ، تندب لسانه الذى كان يدافع به عن عشيرته عند اجتماع العشائر . تقول [١] :

أصـــبرتُ عـــن عمـــى الـــذى

قــد كــان بـالمعروف آمــرْ

أصـــبرت عـــن عمـــى الـــذى

كــان المــؤامر والمــؤازر

إخوانـــه النفـــر الشـــرا

ة ذوو الفضـــيلة والبصـــائرْ

[١] - شعر الخوارج ، ص ٢٣٩ ، دار الشروق .

يـــا عـــمّ كنـــت لســـان قـــو

مـــك حـــين يجتمـــع المعاشـــرْ

فلأبكينَـــــــــــك بالغـــــــــــدا

ة وبالأصـــــائل والهـــــواجرْ

ولـــــئن بكيـــت لقـــد رزئـــت

بفـــــارس بطـــــلِ مغـــــاورْ

وإذا كانت مليكة الشيبانية قد فقدت أخاها وعمها فهناك من فقدت أكثر من ذلك . فهذه امرأة خارجية تدفع بأبنائها الأربعة للقتال وهم فى بداية شبابهم فيقتلون جميعاً – والأبناء فلذات الأكباد – فتتحسّر عليهم وتتعهـد أن تبكـيهم الدهر كله . فتقضى ما بقى من عمرها بين حزن وإعوال وكمد كما تقول [1] :

نجلـــتهم كســـيوف الهنـــد أربعـــة

بيضاً مصاليت فى الهيجاء كالأسدِ

حتى إذا أكملوا فى الســنّ واتســقوا

أخنى على القوم ما أخنى على لبدِ

لهفى علـــيهم فـــإنى مـــن تـــذكّرهم

طويلة الحزن والإعــوال والكمــد

لا أفتـــأ الـــدهر أبكـــيهم بأربعـــةٍ

ما اجترّت العيسُ أو حنّت إلى ولَدِ

☯ ☯ ☯

[1] – شعر الخوارج ، ص ٢٥٩ ، دار الشروق .

وإذا كان الموت يمثل مصيبة كبرى ورزيّة عظمى للإنسان . مهما أظهر الصبر والتجلّد فطبيعى أن يحاول دفعه بشتى الوسائل حتى لو وصل الأمر لدرجة **الاستعطاف والاستشفاع** . ولكم يظهر الشعر أخاذاً قويّا لو ركب هذا الأمر ؛ لأن تاثيره يكون فى النفس قوياً . وكثيراً ما أعتق الاستشفاع رقاباً من الموت ، أو أغدق على أصحابه أموالاً ومناصب . يقول ابن رشيق : " وما زالت الشعراء قديماً تشفع عند الملوك والأمراء لأبنائها وذوى قرابتها فيشفعون بشفاعتهم وينالون الرتب بهم [١] " .

ويقول الجاحظ : " ومن قدر الشِّعر وموقفه فى النفع والضَّر أن ليلى بنت النضر بن الحارث بن كَلَدة ، لما عرضت للنبى ﷺ وهو يطوف بالبيت واستوقفته وجذبت رداءه ، انكشف منكبه ، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها . وقال رسول الله ﷺ لو كُنت سمعت شعرها هذا ما قتلته [٢] " .

والجاحظ يشير إلى قولها : [٣]

يا راكبا إن الأثيل مظنَّةٌ

من صبح خامسةٍ وأنت موفق

أبلغ به ميتاً بأن قصيدة

ما إن تزال بها الركائب تخفق

---

[١] - العمدة ، ص ٤٤ .

[٢] - البيان والتبيين ، جـ٤ / ٤٤ . ويقول الجاحظ أنها ليلى ، وفى زهر الآداب والعمدة أنها قتيلة بنت الحارث ، ولكن الجاحظ يتفق مع العمدة فى أنها ابنته ، أما زهر الآداب فيرى أنها أخته ، انظر العمدة / ٤٣ وزهر الآداب ، جـ١ / ٦٦ .

[٣] - العمدة ، ص ٤٣ ، زهر الآداب ، جـ١ / ٦٦ .

منــــيَّ إليـــه وعبـــرة مســـفوحةً
جادت لمانحهــا وأخــرى تخنــقُ

فليســـمعنّ النضـــر إن ناديتــــه
أم كيف يســمع ميــتٌ لا ينطــقُ

ظلــت ســيوف بنــى أبيــه تنوشــه
لله أرحــــام هنـــاك تشـــقّقُ

قســراً يقــاد إلــى المنيــة متعبــا
رَسْفَ المقيّد وهــو عــان موثــق

أمحمــدٌ هــا أنــت نجــل نجيبــة
من قومها والفحلُ فحــل مُعْــرقُ

ما كان ضــرك لــو مننــت وربمــا
مَنَّ الفتى وهو المغــيظ المحنــقُ

والنضرُ أقــرب مــن قتلــت وســيلة
وأحقهــم إن كــان عتــق يعتــقُ

فقال النبى ﷺ لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته .. أو كما جاء فـــى زهر الآداب : " فذكر أن رسول الله ﷺ رقَّ لها ودمعت عيناه وقال لأبى بكر: لو كنت سمعت شعرها ما قتلته [1] " فنجد من أثر الاستشفاع أن الرسول الكريم يرق قلبه وتدمع عيناه ويقول لو أن هذا الشعر سمعه قبل مقتله لعفا عنه .

كما نجد الاستعطاف يخرج الحطيئة من ســجن الخليفــة عمــر بــن الخطاب – رضى الله عنه – بعد أن استعطفه الحطيئة ببناته الصغار ، وكان

[1] – زهر الآداب ، جـ١ / ٦٦ ، العمدة ، ص ٤٣ .

الحطيئة فى حبس عمر بن الخطاب رحمه الله – باستعداء الزّبرقان عليه فـى هذه القصة . ولعمر يقول الحطيئة [1] :

مــاذا تقــول لأفــراخ بــذى مــرخ
حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شــجرُ
ألقيت كاسِــبَهم فــى قعــر مُظْلمــةٍ
فاغفر – عليك سلام الله – يا عمرُ
أنت الإمام الذى مــن بَعْــدِ صــاحبه
ألقى إليك مقاليــدَ النُهــى البشــرُ
مــا آثــروك بهــا إذ قــدموك لهــا
لكن بِكَ استأثروا إذ كانت الأثــرُ

والخوارج برغم استبسالهم فى المعارك وعدم الخوف من القتل إلاّ أننا نجدهم يضعفون أمام الموت فـى بعـض الأوقـات ، فنجـدهم يستشـفعون ويستعطفون فى سبيل الإبقاء على حياتهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما يرويـه التنوخى يقول : " حدّث أحمد بن أبى داود القاضى قال : مـا رأيـت رجـلا عرض على الموت فلم يكترث به ولا شغله عما أراده حتى بلغه وخلصـه الله من القتل إلاّ تميم بن جميل السدوسى الخارجى ، وكان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جيء به أسيراً ، فأُدخل عليه فى يوم موكب ، وقد جلس المعتصـم للناس مجلساً عاماً . ودعا بالسيف والنطع ، فلمّا مثـل بـين يديـه ، نظـره المعتصم فأعجبه حسنه وقدّه ومشيته إلى الموت غير مكترث به ، فأطال الفكر فيه ، ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله ، فقال : يا تميم إن كـان

[1] – الكامل للمبرد ، جـ٢ / ٧٢٥ .

لك عذر فأت به . فقال : أما إذ أذن أمير المؤمنين فى الكلام فإنى أقول : " الحمد لله الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ، ولَمَّ بك شعث الإسلام والمسلمين ، وأخمد بك شهاب الباطل ، وأنار بك سبيل الحق، إن الذنوبَ يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة ، وتصدع الأفئدة ، وأيّم الله لقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلاّ عفوك وانتقامك ، وأنت إلى العفو أقرب ، وهو بك أشبه وأليق ثم أنشده :

أرى الموتَ بين السيف والنطع كامناً
يلاحظنى من حيث لا أتلفتُ
وأكبر ظنّى أنّك اليوم قاتلى
وأى امرئ مما قضى الله يفلتُ
وأى امرئ يدلى بعذرٍ وحجةٍ
وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يعزُّ على الأوس بن ثعلب موقفٌ
يُسَلُّ علىّ السيف فيه وأسكتُ
وما جزعى من أن أموت وإننى
لأعلم أن الموت شيءٌ مُوَقّتُ
ولكنَّ خلفى صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرةٍ تتفتّتُ
كأنىّ أراهم حين أُنْعَى إليهم
وقد لطموا حُرَّ الخدود وصوّتوا

فإن عشت عاشـــوا ســـالمين بغبطـــةٍ

أذود الردى عنهم وإن متُّ مُوِّتـــوا

وكـــــم قائـــــل لا يبعـــــد الله داره

وآخـــر جـــذلان يُســـر ويَشْـــمتُ

قال : فبكى المعتصم ثم قال : إن من البيان لسحراً كما قال رسول الله ﷺ . ثم قال : يا تميم كاد والله يسبق السيف العذل ، وقد وهبتك لله ولصـــبيتك وعفوت عن زلَّتك ، ثم عقد له ولاية على عمله وخلع عليه ، وأعطاه خمسين ألف دينار " [1] .

ومن هذا رأينا كيف أنقذ الاستعطاف تميم السدوسى الخارجي من الموت بعد أن رأى الموت بين السيف والنطع كما قال : ولـــم يتوقـــف أثـــر الاستعطاف عند هذا الحد فقط بل تخطاه إلى ولاية على عمل وثروة ضـــخمة من المال . لأن أثر الاستعطاف عظيم ، ألم نر كيف تحولت مشاعر المعتصم من إعداد للسيف والنطع إلى رقةٍ وبكاء لحال عدوه، ثم يخلع عليه ما أسلفنا!!.

وليس الأمر يخص المعتصم فقط ، بل خصَّ مـــن عُرفـــت قلـــوبهم بالقسوة. فالحجاج بن يوسف الذى يخشاه أى رجل يقف أمامه فهو كمـــا قـــال رجل فيه [2] .

كـــأنّ فـــؤادى بـــين أظفـــار طـــائر

من الخوف فى جوِّ السماء مُحلِّـــقُ

حِذارَ امرئ قـــد كنـــت أعلـــم أنّـــه

متى يَعِدْ من نفسه الشـــرَّ يصـــدقُ

---

[1] – المستجاد من فعلات الأجواد ، ص ١١٧ وما بعدها .

[2] – عيون الأخبار لابن قتيبة : المجلد الثانى ، جـــ٣ / ١٤٥ .

نجد الحجاج يعفو عن رجل من الخوارج وقد جاءه ليقتل ، فيغيِّر الرجل أقواله ويقول شعرا [١] :

أحجاج إنّي والذى أنا عبده
على دين خير العالمين محمدِ
ودين أبى بكر وصاحبه الذى
مضى عادلا فى حكمه لم يفندِ
ولست لعثمان بن عفان باغضاً
ولا قائلاً فيه مقالة ملحدِ
وإن يك عثمانُ بن عفان ظالما
فربّك للعبد الظّلوم بمرصدِ
وأمّا علىٌّ ذو المعانى فإنّه
وصىُّ نبىّ ذى سناءٍ وسؤددِ
وإن يك مظلوماً [له] الله ناصرٌ
فينصره من كل باغٍ ومعتدِ
وقد كان مولى المؤمنين وإننى
مقرٌّ به فى كل نادٍ ومشهدِ
فذلك دينى لا أدين بغيره
ولست كهذا الكافر المتلدّدِ

صحيح أن هذا الشعر ليس فيه ما يثير الشفقة والاستعطاف على قائله. ولكن ألسنا نرى أن تغيير الموقف فى هذه الآونة استعطاف يقصد صاحبه من ورائه اتقاء القتل والمحافظة على حياته ؟ أظن ذلك .

[١] – شعر الخوارج ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، دار الشروق .

وإذا كان للاستعطاف أثر على المستعطَف فله أثـر أيضـاً علـى المستعطِف ، لأنه يوقع من عفا عنه فى أسره فلا يحاربه أو يذمه بعد ذلـك . وهذا ما حدث مع عمران بن حطان الخارجي بعد أن عفا عنه الحجاج . فقـد جاء فى زهر الآداب . " ولمّا ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشارى ، قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عِمران : لبئسما أدّبك أهلك يا حجاج ! كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتنى به ؟ أبَعْدَ الموت منزلـةٌ أصـانعك عليهـا ؟ فأطرق الحجاج استحياءً وقال : خلُّوا عنه ، فخرج إلى أصـحابه ، فقـالوا : والله ما أطلقك إلاّ الله ، فارجع إلى حربه معنا ، فقال : هيهـات : غـلَّ يـداً مُطْلِقُها ، واسترقَّ رقبةً مُعْتقها وأنشد :

أ أقاتـل الحجـاج عـن سـلطانه
بيـد تُقـرُّ بأنهـا مولاتـه
إنـىَّ إذاً لأخـو الـدّناءة والـذى
عَفَـت علـى عرفانـه جهلاتُـهُ
مـاذا أقـول إذا وقفـت موازيـاً
فى الصّف واحتجت لـه فعلاتـهُ
وتحـدّث الأكفـاءُ أن صـنائعاً
غُرست لـدى فحنظلـت نخلاتـهُ
أ أقـول جـار علـىَّ ؟ إنـى فـيكم
لأحقُّ من جـارت عليـه وُلاتـه
تـالله مـا كـدتُ الأميـر بآلـة
وجوارحـى وسـلاحها آلاته [1]

---

[1] - زهر الآداب : للحصرى القيروانى ، المجلد الثانى ، جـ٣ / ٩٢٤ ، ٩٢٥ .

وإذا كان هذا هو موقف بعض رجالات الخوارج ، يتوجهون بالاستعطاف والاستشفاع من أجل الإبقاء على أرواحهم برغم بسالتهم ومواقفهم الصلدة . فما بالنا بالنساء ؟ فبطبيعة الحال نجدهن أرق وأضعف . ولأن الرجل يمثّل فى مجتمع النساء الشىء الكبير لذا وجدنا من نساء الخوارج من تستعطف وتستشفع الحجاج فيرق لها الحجاج مع قسوته المعهودة . فقد رُوى : " كان يزيد بن قرة الشيبانى شديداً منيعاً ، وكان يرى رأى الخوارج ، ولم يخش عمال العراق ، فغاظ ذلك الحجاج وبلغ منه . فكتب إلى عبد الملك يخبره بذلك فكتب إليه عبد الملك : احتل له فإن قدرت عليه فاضرب عنقه ، فدعا الحجاج يزيد بن رويم وجرير بن يزيد فأكرمهما وأدناهما وقال ليزيد : لك شُرَط العراق ولجرير ديوان الخراج إن أتيتمانى بيزيد بن قرة . فركبا إليه فقالا له : إن الأمير قد غضب عليك ، وإنّا نخاف أن ينال غضبه جميع أهلك فاركب إليه ، قال لا أفعل إنّه إن نظر إلىّ قتلنى ، قالا له : ما هو فاعل ولابد أن تركب معنا ، فأتى معهما ، تهيأ للقتل وخرج نساؤه معه ، فلما دخل على الحجاج قال له : أنت يزيد بن قرّة ؟ قال : نعم . قال : قتلنى الله إن لم أقتلْك، قال نشدتك الله ألا تقتلنى فإنى قيّم أربعٍ وعشرين امرأة ، ليس فيهن رجل غيرى ، ولا لهن قيِّمٌ سواى . قال ومن يعى ذلك ؟ قال : هُنّ بالباب . فأمر بإدخالهن وكل واحدة منهن تقول : اقتلنى ودعه . فيقول : من أنت ؟ فتقول : عمته أو خالته أو ابنته ، أو بنت أخ أو بنت أخت حتى اجتمعن بين يديه فقالت أخته :

أحجاج هبه اليوم لله وحده
وللباكيات الصارخات تفجعا

أحجاج إما أن تمنَّ بنعمة
عليه وإمّا أن تُقَتِّلنا معا

أحجـــاج كـــم تُفجـــع بـــه إن قتلتـــه
ثمانى عشـــرة واثنتـــين وأربعـــا
أحجـــاج لـــو تســـمع بكـــاء نســـائه
وعماتـــه يندبنـــه الليـــلَ أجمعـــا

" فرقَ لها الحجاج وبكى وحبسه وكتب فى أمره إلى عبد الملك يصف ما جرى فكتب إليه ، اعف عنه وألحق عياله فى العطاء ففعل " [1] .

وهكذا نجد الاستعطاف أثَّر فى الحجاج فعفا عمن كان يريد قتله بـــل ورقَّ الخليفة أيضاً ، فعفا عنه ، وألحق عياله العطاء .

وبهذا كان شعر الاستشفاع موضوعاً مهما عند نساء الخوارج فبرغم قلته إلاَّ أنَّه يتناسب مع حياتهم التى تتسم بكثرة القتلى وما يصحبها مـــن فقـــد واغتراب .

* * *

فإذا تركنا الموضوعات الشعرية التى جاء عليها شعر نساء الخـــوارج وانتقلنا إلى مناقشة القالب الشعرى الذى تضمن هذه الموضوعات وجدنا بعض الملاحظات التى تلفت النظر عند مطالعة هذا القالب الشعرى . ومنهـــا **عدم الالتزام بمقدمة** كعادة الشعراء القدماء " فلم يترسموا طريق القدامى ... بـــل انطلقوا على سجيتهم بما يتلاءم وغاية الشعر التى يرمون إليها فنجـــدهم قـــد استغنوا عن المقدمة الغزلية والطللية فى استفتاح قصائدهم " .

---

[1] – المستجاد من فعلات الأجواد ، المحسن التنوخى ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وربما كان ذلك بسبب اقتصار شعرهن فى الغالب على المقطوعات الشعرية ، والمقطوعة لا تتحمل المقدمة ، بالإضافة إلى أنهن لم يتخذن أشعارهن للتكسب والاحتراف . فيطالبن بمقدمة تلفت أسماع الجمهور إليهن وما إلى ذلك . فشعرهن لم يقل لجمهور أو إلى متلقٍ خارجى .

هذا بالإضافة إلى أن القصيدة الخارجية لم تكن مخالفة لغيرها من قصائد الجاهليين والإسلاميين والأمويين فى افتقارها إلى المقدمة فحسب ، بل تختلف عنها فى أغراضها ، ففى حين أن القصيدة الجاهلية . ومثلها الإسلامية والأموية بشكل عام . تتعدد فنونها وأغراضها ، فإن القصيدة الخارجية تدور فى أكثرها حول معنى واحد ، ولغرض واحد فى سبيل غاية واحدة " [1] . ينطبق هذا على شعر الرجال والنساء معاً .

ولكن من الممكن أن تخص شواعر الخوارج بأنهن ذوات الموضوع الواحد أو الغرض الواحد ليس فى القصيدة الواحدة فقط ولكن فى كل أشعارهن ألا وهو موضوع الرثاء فأغلب شعر نساء الخوارج يندرج تحت هذا الموضوع . ويكفى أن ندلل على ذلك بأن كل ما وقع تحت أيدينا من شعر نساء الخوارج يبلغ ثلاثا وعشرين مقطوعة وقصيدة يبلغ عدد مقطوعات الرثاء منها سبع عشرة مقطوعة . بل ويكفى أن نشير إلى أن مجموع أبيات شعر نساء الخوارج يبلغ مائة وأربعين بيتا ، تعداد الرثاء منها حوالى مائة وأربعة وعشرين بيتاً أى ما يقترب من ٨٩% من مجمل أشعارهن . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن شعرهن يدور فى الأغلب حول موضوع واحد هو الرثاء . وفى هذا خصوصية لهن حتى بالنسبة لشعر رجال الخوارج حيث اتسعت

---

[1] – الخوارج : د. نايف معروف ، ص ٢٨٩ .

أغراض شعرهم ولم تقتصر على موضوع واحد وإن قلوا كثيرا عن غيرهم من الشعراء الآخرين .

وشعر الرثاء عند نساء الخوارج لم يقدم كعزاء للغير أو تأبين ، تُعدد فيه محاسن الميت ولكنه اقتصر على الندب والتحسر والتفجّع وهذا لا يحتاج إلى متلقٍ خارجي كما قلنا ولكنها زفرات وأنّات وحسرات فى النفس فهى كالدورة الدموية التى تبدأ وتنتهى داخل الإنسان . ولهذا ينبغى أن ننظر لشعرهن من هذه النظرة على أنه أنات وزفرات كما قلنا . انطبعت عليها حياتهن لكثرة قتلاهن ، فعيونهن لا تجف على الدوام فمِن قتل أخ إلى قتل ابن إلى قتل زوج إلى قتل أب أو عم أو قتلهم جميعاً . هذا مع بيئة لغوية صافية يغلب عليها ثقافة القرآن وسلامة اللغة ، بالإضافة إلى قريحة سليمة . خرّجت هذه الآهات المكلومة شعراً .

ففى اعتقادى أن المرأة الخارجية لم تقصد إلى الشعر قصداً ، ولم تتفرغ يوما لقرضه ونظمه ، ولكنها زفرات وحسرات عندما زادت خرجت شعراً . ومما يدلل على أنهن لم يقلن الشعر قصداً ، أنهن لم يجلن النظر فى الشعر بعد قوله أى لم يأخذ حقه فى المراجعة والتدقيق بدليل غلبة الزّحافات[1] على شعرهن بكثرة ملفتة ، حتى أن نسبة التفعيلات التى دخلها التزحيف فى شعرهن إلى مجموع التفعيلات تصل إلى ٣٥% من عدد التفعيلات ، وأن شعر مليكة الشيبانية التى يصل عدد أبياتها إلى ثمانية وأربعين بيتاً أى أكثر من ثلث شعر النساء يصل نسبة التزحيف فى شعرها إلى ٥٦% من عدد تفعيلات أبياتها .

١- الزحافات عبارة عن تغييرات تحدث فى التفعيلات بالنقص وتخص تفعيلات الحشو فى الأغلب ، وقد تأتى فى تفعيلتى العَروض والضرب ، ويسمى الزحاف فى هذه الحالة (زحاف يجرى مجرى العلة).

وكثرة التزحيف تؤثر على سلامة الوزن فى القصيدة حتى أن قدامة ابن جعفر قال : " من عيوب أوزان الشعر التخليع ، وهو أن يكون قبيح الوزن، قد أفرط قائله فى تزحيفه ... فإنّ ما جرى من الشعر هذا المجرى ناقص الطلاوة قليل الحلاوة " [1] . ويرفض المرزبانى كثرة التزحيف الذى جاء فى قصيدة عبيد بن الأبرص فيقول : " ومثل قصيدة عبيد بن الأبرص . وفيها أبيات خرجت عن العروض ألبتة ، وقبّح ذلك جودة الشعر حتى أصاره إلى حد الردىء منه ، فمن ذلك قوله :

والحيُّ ما عاش فى تكذيب ... طول الحياة لهُ تعذيب .

فهذا معنى جيد ، ولفظ حسن ، إلاّ أن وزنه قد شانه ، وقبَّح حسنه ، وأفسد جيده . فما جرى من التزحيف هذا المجرى فى القصيدة أو الأبيات كلها أو أكثرها كان قبيحاً من أجل إفراطه فى التخليع واحدة ، ثم من أجل دَوَامه وكثرته ثانية . وإنما يستحبُّ من التزحيف ما كان غير مفرط ، أو كان فى بيت أو بيتين من القصيدة ، من غير توالٍ ولا اتِّساق يخرجه عن الوَزْنِ " [2] .

فالتزحيف حتى وإن كان جائزاً فى الشعر إلاّ أن كثرته تؤثر على سلامة الوزن ، حتى أن قصيدة عبيد لم تأت على وزن واحد بل تناوبت بين مخلع البسيط ومجزوء البسيط مما أثر على إيقاعها الموسيقى وذلك اكثرة الزحافات الموجودة فيها . وهذا شديد الوضوح فى شعر نساء الخوارج فالتزحيف لم يكن فى بيت أو بيتين حتى يُقبل ولكن كل بيت من أبيات شعر الخوارج لا يخلو من زحاف أو زحافين ، فمجمل الزحافات فى شعرهن تصل

---

[1] – الموشح للمرزبانى ، ص ١٠٨ .

[2] – نفسه ، ص ١٠٩ .

إلى مائتين وستة وثلاثين زحافاً فى جملة مائة وأربعين بيتاً من الشعر . وهذا يدل على عدم حسن البنية الإيقاعية لهذا الشعر . والذى مرده كما قلنا إلى عدم اهتمام الشواعر بشعرهن لأنهن لم يقصدنه قصدا .

ومما يلاحظ أيضاً على القالب الشعرى عند نســاء الخــوارج عــدم الاعتماد على الصورة الشعرية كعنصر من عناصر الشاعرية ، ففى جميــع شعر الخوارج لم تبرز إلاّ ست صور فقط تعتمد على أبسط عناصر الصورة وهو التشبيه ، وكل التشبيهات الموجودة متأثرة بالبيئة الخارجية المعتمدة على القتال وقوة المنازلة فيه أو البكاء ، أو علو منزلة المقاتل وفقدانه .

فمن الصور التى تدلل على التأثر البالغ من كثرة مصـــاحبة القتلـــى لدرجة أن العين أصبحت ممتلئة بالدموع على الدوام كنفخات القطــر . قــول أخت الحازوق الخارجى :

أقلب عينى فى الركاب فــلا أرى

حزاقا وعينى كالحَجَاة من القطــر [1]

أو تزول الدموع وهى عزيزة كالجمان :

مـــا بـــال دمعـــك دائـــم الســـجم

مثل الجمـــــان وهى من النظـــــم

أما الصور التى تجسّد حسن البلاء فى المعارك والقوة والشجاعة وهى تدور حول تشبيه المقاتل بالأسد ، أو كالسيوف فمن ذلك :

ولىّ صـــحابته عـــن حَـــرٍّ ملحمـــةٍ

وشـــدَّ عمـــران كالضـــرغامة الهُصـــرِ [2]

---

[1] – الحَجَاة : النفاخات التى تعلو الماء من قطرِ المطر .

[2] – الأسد الهصر : الأسد الشديد .

نجلـــتهم كســـيوف الهنـــد أربعـــة
بيضاً مصاليتَ فى الهيجاء كالأســـد [1]

ولليــث فــوق الــنعش إذ يحملونـــه
إلـــى حفـــرة ملحـــودة وســـقوف

أما الصور التى تدور حول علو المنزلة فمنها :

وللبدر من بـــين الكواكـــب إذ هـــوى
وللشمس همـــت بعـــده بكســـوف

فقـــدناه فقـــدان الربيـــع فليتنـــا
فـــديناه مـــن ســـاداتنا بـــألوف

وقلة الاعتماد على الصور يدلل على عدم الاهتمام بالشعر كما أسلفنا ، فالصورة عنصر أساسى من عناصر العمل الشعرى " فالشعر ليس فى اللفـظ وحده ، (كما يقول ابن خلدون) ، ولا هو فى المعنى وحده (كما يقول ابـن رشيق) ، ولكنه فى الصورة البلاغية (الشعرية) كما يقول ضياء الدين بـن الأثير " [2] .

أما بالنسبة للمحسنات البديعية فلم يستخدمن غير مُحسِّن واحـد فقـط وفى أبيات قليلة وهو الطباق . ومن أمثلته :

---

[1] – المصاليت : السيوف الصقيلة الماضية .

[2] – عبقرية اللغة العربية : د. عمر فروخ ، ص ٣٠٠ ، دار الكتاب العربـى بيـروت – ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .

ـ يصـــل القرابـــة والجـــوار إذا
قطـع القرابـة صـاحب الظلـم

ـ يــدعوه سـراً وإعلانـا ليرزقــه
شـهادة بيـدِ ملحـادة غُـدُرِ

ـ ولي صـحابته عـن حـرٍ ملحمـة
وشد عمران كالضرغامة الهُصُـرِ

ـ أبكـى وحـقَ لـى البكـا
ء مـع العـوادي والـروائح

أما فيما يخص الصياغة اللفظية والتراكيب اللغوية ، فنجد الشـواعر كنَّ يتوخيّن السهولة واليسر ، ولم يكن همهن إبراز البراعة اللغوية بل كـان همهن نقل أحاسيسهن ومشاعرهن ، ولهذا امتاز شعرهن بالسلاسة والدقـة . بعيداً عن الغرابة والعجمة ، مع ميل إلى البساطة فى التعبير وبعد عن الصنعة الفنية ، وبذلك جاء شعرهن صريح اللفظ منكشف المعانى كأنما أردن الوصول إلى غايتهن مباشرة .

كما يلاحظ أن شعرهن يدور حول **معجم شعرى** خاص بهن يـرتبط ارتباطا وثيقا ببيئتهن التى هى فى مجملها ساحات للمعارك أو معسكرات لها . ولهذا غلب على معجمهن الشعرى ألفاظ المعارك وما ينتج عنها من مـوت، يعقبه حسرة وتفجع ، ويكفى أن ننظر فى هذه المفردات التـى تـرددت فـى أشعارهن . ليتضح لنا أثر الظروف التى كنَ يعشنها على معجمهن الشـعرى منها :

الرمح ، دم سائل ، مطعون ، ثاكل ، العين ، الدمع ، عَبْرى ،مصائب فقيد ، حرارة ، بكاء ، الموت ، التلهف ، الجزع ، هَرَقتَ ، دماء ، الزماجر العساكر ، منيّة ، الشهادة ، القتل ، الندب ، تفجع ، السيف ، الأبرار ، المرزى ، التقى ، القَنا ، الخيل ، العدو ، الردى ، الحِمام ، البِلى ، النوائب ، الوغى ، كتيبةَ ، الحرب ، طعنة ، الهيجاء ، الأسد ، الإعوال ، الكَمد ، الظلم، الثرى ، الشراة .

هذه هى المفردات التى تغلب على معجمهم الشعرى وهى مفردات تقترب من التفجّع والتحسّر أكثر منها من الفرحة بالمعارك وحُب الاستشهاد فيها كما هو فى عالم رجالهم . إن هذه المفردات عندما تنتظم لا تعبر عن جيشان عاطفى فقط ، ولكنها تحمل قدرة على التأثير فيمن يسمعها ، لأنها ببساطة مفردات مألوفة ومشتركة بين الناس فاكتسبت حياة بحياة الناس .

استطاعت هذه المفردات الحيّة أن تعبر عن انفعالات المرأة الخارجية وما يصاحبها من مشاهد الحياة الداخلية وتقلقلها ، حتى أصبحت هذه المفردات وما تبعثه من تدفق عاطفى عوضاً عن الصور التى تعود الشعراء أن ينشروها فى قصائدهم بين البيت والبيت .

فالشاعرة الخارجية كانت تعبّر تعبيراً تلقائياً بلا محاولة للإبداع أو التفنن ، معتمدة على حرارة العاطفة وإيحاء الألفاظ المرتبطة بالمشاعر والانفعالات ، إنها تبث فى ألفاظها قدراً كبيراً من الحرارة واللوعة فاستغنت بذلك عن التشبيهات والمجازات إنها تقربنا كثيراً من عالم الشعراء العذريين [1].

---

[1] - انظر : فى الشعر الإسلامى والأموى ، د. عبد القادر القط ، ص ١٤٤ .

والشاعرة الخارجية لم تعتمد فقط على الألفاظ الموحية فى التعبير عن انفعالاتها ولواعجها ولكنها استخدمت وسائل لغوية أخرى تساعد علـــى ذلــك منها : التكرار واستخدام الأساليب الإنشائية .

" فالتكرير أسلوب تعبيرى يصور انفعال النفس بمثير من أشــباه مـــا سلف ، واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذى ينشـــر الضـــوء علـــى الصـــورة لاتصاله الوثيق بالوجدان ، فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتماماً عنــده ، وهــو يحب فى الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه ، أو من هــم فـــى حكــم المخاطبين ، ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار .

فاللفظ المكرر بوجه عام – مصدره الثورة وهدفه الإثـــارة ، حبـــاً أو بغضاً ، فى أى غرض من أغراض الكلام ، ... ويرجع أثر التكرار إلى أنّــه يزيد الشيء المكرر تميّزاً من غيره ، فالأشخاص الذين يقع علـــيهم نظـــرى كثيراً يزدادون وضوحاً فى إدراكى وتصبح صورهم بمثابة الصيغة القوية التى تستأثر بذاكرتى ، وكذلك الأقوال أو الأحكام التى تتوافر فى سمعى تكون أكثر وروداً على لسانى أو خلال تفكيرى من الأقوال والأحكام العابرة " [1] .

فالشاعر بتكرار ألفاظ بعينها يحاول أن يجسّد صورة بيانيـــة تجســـم الإحساس وتبرزه مستعيضاً بها عن المجازات والتشبيهات [2] .

وإذا تلمسنا ظاهرة التكرار فى شعر نساء الخوارج وجدناه جاء فـــى موضوعات متعددة ولكن يغلب فى موضوع الرثاء ، فالرثاء به ألصق ، لأنه

---

[1] – التكرير بين المثير والتأثير : د. عز الـــدين علـــى الســـيد ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨هـــ ، ١٩٧٨م .

[2] – فى الشعر الإسلامى والأموى ، ص ١٤٦ .

فى الغالب يدل على التحسر والتحزن ، فالقلب يحترق بالحزن لحبيب رحل ولن يعود ، مع استحكام اليأس وانعدام الأمل ، ولا أقسى على القلب من فراق الأحباب فراقاً إلى الأبد . فنلاحظ الشاعرة الخارجية تحاول أن تكرر اللفظ موضوع الحالة التى هى عليها : فتكرر اسم عزيز رحل وما زال محفوراً فى وجدانها ، تكرر لفظ (العين) تستدرها فى البكاء عليه ، تكرر لفظ (البكاء) لاستمرار الحالة .

تكرر ألفاظ لها علاقة بأسباب الموت : ولهذا يصدق قول ابن رشيق القيروانى : " وأول ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة وشدة القرحة التى يجدها المتفجّع وهو كثير حيث التمس من الشعر وجدا " [١] .

فهذه أم عمران تنعى ولدها فتحاول أن تكرر اسمه أكثر من مرة وكأنه ماثل أمامها تحدثُه ويحدثها :

الله أيد عمرانا وطهره
وكان عمران يدعو الله فى السَّحر
ولى صحابته عن حَرٍّ ملحمة
وشد عمرانُ كالضرغامة الهُصرِ

والعين أُولى الأعضاء التى تحس بالفقد وهى العضو المعبر عن حالات الحزن فتكرارها يعطى دلالة أيضاً :

تقول أخت الحازوق الحنفى
أقلب عيني فى الركاب فلا أرى
حزاقاً فعيني كالحَجاة من القطر

---

[١] – العمدة ، ص ٣٠٠ .

ومن تكرار لفظ (البكاء) للدلالة على استمرار الحالة .

أبكـــي ومـــا يغنـــى التّلهـــفُ

والبكــــاءُ عـــــن الجـــــزوع

والدم من أسباب الثكل والفقد .

فلست بناج من يـد الله بعـد مـا

هرقـت دمـاء المسـلمين بـلا دم

كما استخدمت الشاعرة الخارجية التكرار فـي موضـوعات أخـرى بغرض إظهارها وإبرازها منها :

تركـــت رمحـــاً لينـــا مسُـــه

وجئـــت رمحـــاً مسُـــه قاتـــلُ

شـــتان هـــذا بـــدم ســـائل

وذاك منـــه عســـل ســـائل

مطعـــون ذا كـــم منـــه فـــي لـــذة

وأمّ مطعـــون بـــذا ثاكـــلُ

والتكرير قد يأتي لإثبات صفة :

ـ ويحـــوط المـــولى ويصـــبح الخيـــر

ويجـــزى الإحســـان بالإحســـان

ـ حليف الندى إن عاش يرضى بها النـدي

وإن مات لا يرضى الندي بحليف

ـ ألا إن وجهـــا حسّـــن الله خلقـــه

لأجدر أن يُلفى به الحسنُ جامعـا

وقد يكون لتأكيد نفى صفه :

ـ وقد علمت أن لا ضـــعيفا تضـــمنت
إذا عظم المرزى ولا ابن ضـــعيف

وقد يكون التكرار للتمنى :

فـــإن يـــك أرداه يزيـــد بـــن مزيـــد
فربّ زحـــوف فضـــها بزحـــوف
ففى قتلهم مثل الذى نال مـــن حظـــى
بقتل حزاق فى العلاء وفى الـــذكر

وقد يكون التكرار لتقرير واقع :

ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقـــح
وســـمر القنـــا ينكزنهـــا بـــأنوف

إن التكرار يعطى شحنةً عاطفية زائدة ، لهذا استعانت بـــه الشـــاعرة الخارجية ، أو أنها كررت وهى لا تدرى ، لأنها تتحدث وهى تحـــت مثيـــر انفعالى أقوى منها على الدوام .

أما عن كثرة استخدام الأساليب الإنشائية فنظراً لحيويتها فى إشـــراك المتلقى فى الموقف الذى عليه المبدع ، " فإذا كان الخبر يمثل اللغة فى جانبها المستقر فإن الإنشاء يمثلها فى جانبها المتحرك ، فالأساليب الإنشائية طلبيـــة كالأمر والنهى والاستفهام والتمنى والنداء ، أم غير طلبية كالتعجب والمـــدح والذم والقسم ، أبرز مظاهر اللغة التى تعرب عن حيويتها .

ونرى هذه الأساليب معربة عن هذه الحيوية بأربعة عوامل رئيسة :

أولها : العامل الصوتى : فمن مقومات التراكيب الإنشائية ، وخاصة الطلبية منها : النغمة الصوتية فهذه لا تنخفض فى آخرها ، لبقاء الكلام فى حاجة إلى جواب بالقول أو استجابة بالفعل أو تعليق ، أو ما من شأنه أن يجعل الكلام منفتحاً غير منغلق .

وثانياً : العامل النحوى أو الصرفى : فالتراكيب الإنشائية ترتكز على أدوات خاصة (كالأداة فى الاستفهام أو القسم) ، أو صيغ معينة تبنى عليها بعض عناصرها (كصيغة الأمر فى الأمر ، أو صيغة ما أفْعله أو أفعل به فى التعجب) وتساهم فيها هذه العناصر بأكبر قسط فى تحديد مدلولها .

ثالثها : العامل المعنوى البلاغى : فمن مقومات هذه الأساليب – فى ظاهرها – الترجمة عن الانطباعات العاطفية دون المقررات العقلية ، فهى تعكس أزمة الشعور وحيرة العقل أكثر من حقيقة العلم وصادق الرأى .

رابعها : العامل النفسى المنطقى : فهذه الأساليب تنبئ لقيام حوار ، وقد تفضى إليه وقد لا تفضى ، وبحسب ذلك تتلوّن معانيها ودلالتها .

بهذه العوامل تنشّط الأساليب الإنشائية مراحل النص إذا داخلته وتعرب أكثر من غيرها من الأساليب عن حاجة الباثّ إلى مساهمة المتقبِّل الذى يتحول فيها من متقبل مجرد إلى طرف مشارك " [١] .

---

[١] – خصائص الأسلوب فى الشوقيات : محمد الهادى الطرابلسى ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١ .

وبهذه العوامل الأربعة جاءت الأساليب الإنشائية عند شواعر الخوارج والتى تتمثل فى : مشاركة المتلقى وإقامة حوار معه ، الصيغ والأدوات تعطى دلالات جديدة ، تعبر عن أزمة الشعور أو المأزق النفسى عندهن .

اعتمدت هذه الأساليب على الجانب الطلبى منها وبالـذات الاسـتفهام والنداء لتجعل من المتلقى طرفاً حاضراً فى الموضوع . هذا المتلقـى قـد لا تقصده فى حينها ولكنه قد يكون طرفا فى ظرف زمانى أو ظـرف مكـانى مختلفين .

ولما كانت التجربة العاطفية عند الشاعرة الخارجية تجربة داخلية فى المقام الأول ، وكان الاتصال بينها وبين العالم الخارجى معدوماً أو كالمعدوم. فإنها تلجأ إلى التساؤل الذى توجهه إلى نفسها أحياناً أو إلى النـاس ، دون أن تنتظر جوابا . ولهذا وجدنا الاستفهام عندها – كما هو فى الشـعر عـادة – يخرج عن معناه الأصلى إلى معان أخرى تفهم من سـياق الكـلام وقـرائن الأحوال " [1] ، هذه المعانى تكون بعيدة كل البعد عن طلب إجابة للسؤال .

ولهذا نجد دلالات الاستفهام تتعدد وتتنوع عند شـواعر الخـوارج ، فمنها ما يدل على الإنكار مثل :

أصـبرت عـن عمـى الـذى
قـد كـان بـالمعروف آمـرْ
أصـبرت عـن عمـى الـذى
كـان المـؤامر والمـؤازرْ

[1] – علم المعانى : د. درويش الجندى ، ص ٥٢ ، دار نهضة مصر .

أو يكون الاستفهام للتمنى كما فى قول أم حكيم :

أحمل رأساً قد سئمت حملهُ

وقد مللت دَهْنَه وغَسْلَهُ

ألا فتى يحملُ عنى ثِقْله

وقد يدل الاستفهام على تقرير حالة ومنها :

ما بال دمعك يا مليكة جار

أم ما لقلبك لا يَقَرّ قرارِ

أم ما لنفسك ليس يسكن حزنها

ليلا وليس نهارها بنهارِ

وقد يكون للتعظيم :

- من ذا يُرجّى للنَصيحة

حين تُفتقد النصائحْ

أم من يُرجّى للقريب

ومن يكون لكل نازحْ

أم من يؤمل لليتيم

وكل ذى غرب ونائحْ

أم من يعم صديقه

خيراً ويحجر كل نابح

- أين الذين إذا ذكرت فعالهم

عرفوا بحسن عفافة ووقار

أيــــن الــــذين إذا أتـــاهم ســـائلٌ

بـــذلوا لــــه أمــــوالهم بيســـــار

أيــــن الــــذين إذا ذكرنـــــا ديـــنهم

قالــت عشــائرهم هُــم أخيــارى

وقد يدل الاستفهام على استبعاد الشيء :

فمَـــــنْ رجـــــل دان يقــــوم مقامـــــه

عبنا فمهلا لا تزدنـــا تضعضـــعاً

مــــــن لقلـــــب شـــــفّه الحـــــزن

أو لــــنفس مـــــا لهـــا ســـكن

وإلى جانب الاستفهام تستخدم الشاعرة الخارجية النداء أيضاً والنـــداء عندها مطلق لا يحتاج إلى تلبية ، لأن المنادى عندها موضوع فى القصـــيدة عادة لا طرف ثان مشارك فى بناء الموضوع ولذلك لم يكن النداء فى شعرها إلاّ خارجاً عن معناه الأصلى .

ولهذا نجد النداء يأتى دالاً على التحسّر والتفجع بالذات عندما نجـــده يأتى مصحوباً بأمر . ومن أمثلته :

ــ يــــا عـــــينُ جــــودى بالـــــدموع

وابكـــــى بجهــــد المســـــتطيع

يــــا مـــــوت ويحــــك مـــا تـــزا

لُ مفرقـــــاً بـــــين الجميــــع

ــ يــــا عـــــين جـــــودى بالـــــدمو

ع بواكــــف حتـــى الممــــات

ــ أعينىَّ جــودا بالــدموع علـــى الصـــدر

على الفارس المقتول بالجبل الوعرِ

وقد يدل على التحسر والتعجب :

فيـــا شـــجر الخـــابور مالـــك مورقـــاً

كأنك لم تجزع على ابـــن طريـــف

وقد يدل على الاختصاص والتقرير :

يـــــا عــــمِّ كنـــــت لســـــان قـــــو

مــــك حــــين يجتمــــع المعاشــــر

وقد يدل النداء على الاستغاثة :

أحجـــاج لـــو تشـــهد مقـــام بناتـــه

وعماتـــه ينـــدبن بالليـــل أجمعـــا

أحجـــاج إمّـــا أن تمـــنَّ بتركـــه

عليـــاً وإمـــا أن تقتلّنـــا معـــا

أحجـــاج لا تفجـــع بـــه ونســـائه

ثمانية عشـــرة واثنتـــين وأربعـــا

وعلى الأغلب والأعم نجد الشاعرة الخارجية تستخدم الاستفهام والنداء فى مجال التحسّر والتفجّع فأسئلتها ونداءاتها ما هى إلاّ رجع صدى لحالتهـا النفسية المنطوية على الحيرة والألم .

وإذا انتقلنا إلى موسيقا الشعر عند شواعر الخـوارج وجـدنا أنهـن التزمن بقواعد العروض العربى المتمثلة فى أوزان الخليل بالإضافة إلى قواعد القافية.

فقد جاءت مقطوعاتهن وقصائدهن على ثمانية أبحر تمثل كل الدوائر العروضية . وقد جاءت نسبة تردد هذه الأبحر على النحو التالى :

استخدم الكامل تاماً ومجزوءاً ثمانى مرات ، والطويل ست مرات والبسيط التام مرتين ، ومشطور الرجز مرتين ، والخفيف مرتين أما المديد والسريع والمتقارب فكل بحر استخدم مرة واحدة .

وقد شكل بحر الكامل أعلى نسبة استعمال عند شواعر الخوارج لأنه يصلح لجميع أغراض الشعر ولهذا فقد كثر استعماله عند القُدامى والمحدثين .

وجاء بحر الطويل فى المرحلة الثانية لأنه أتم البحور استعمالا بالإضافة إلى أنه يصلح للمطوّلات لهذا وجدنا قصيدة (ليلى بنت طريف) والتى تمثل أطول قصيدة فى شعر نساء الخوارج – إذ يبلغ عدد أبياتها تسعةً وعشرين بيتا – جاءت على بحر الطويل .

وإذا انتقلنا إلى القوافى وجدنا الشاعرة الخارجية استخدمت القافية المتواترة إحدى عشرة مرة ، والمتداركة سبع مرات ، والمتراكبة أربع مرات، والمترادفة مرة واحدة وبهذا نرى أنها كانت تميل إلى قلة الأحرف المتحركة بين الساكنين مما يتناسب مع حالتها النفسية .

كما أنها استخدمت القافية المطلقة تسع عشرة مرة والمقيدة أربع مرات فقط .

أما بالنسبة للموسيقا الداخلية فلم تلجأ لها الشاعرة الخارجية إلا واحدة فقط عندما استخدمت مليكة الشيبانية التصريع فى قولها :

مـــا بـــال دمعـــك دائـــم الســـجم

مثل الجمان وهـــى مـــن الـــنظمِ

حيث جاءت العروض حذّاء مضمرة مثل الضرب ولا يكون ذلـــك إلاّ فى التصريع . أما عدم اعتماد الشاعرة الخارجية على القوافى الداخلية فلأنها اعتمدت على المقطوعات الشعرية فى الغالب فى إفراغ تجربتها العاطفية .

كما أن الشاعرة الخارجية لجأت إلى بعض الضرائر الشـــعرية فـــى بعض المواقع ، كصرف الممنوع من الصرف فى قولها :

الله أيد عمراناً وطهره

أو تخفيف الهمزة كقولها :

كلمـــــا ســـــكنت حـــــرارة وجْـــــد

من فقيـــد منـــاً تجينـــا بـــأخرى

أما من عيوب القافية فلم يظهر إلاّ عيب واحد فى حالة واحـــدة فقـــط وهو التضمين :

لـــــو أن الســـــيوف التـــــى حـــــدّها

تصـــــيبك تعلـــــم مـــــا تصـــــنع

نبـــــت عنـــــك إذ جعلـــــت هيبـــــة

وخوفـــــا لصـــــولك لا تقطـــــع

وهو تضمين مقبول على أية حال .

خاتمة البحث

خاتمة البحث

وبعد أن انتهينا من دراسة هذا البحث نحاول أن نجمل بعض الخطوط العريضة التى دار حولها .

ففى التمهيد : استطعنا أن نتعرف على الخوارج ومبادئهم وفـرقهم وأثرهم على الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً ، ضاربين أمثلـة علـى الفظـائع والشناعات التى ارتكبوها .

وفى الفصل الأول : بينا كيف كانت المرأة الخارجية امرأة مقاتلة سواء كانت أما أو أختاً أو زوجة ، حيث كل واحدة منهن تتسم بالشجاعة والاستبسـال ، والدفاع عن المبدأ حتى ولو كلفها ذلك حياتها ، بل هى تسعد بتقديم حياتها من أجل الحق الذى تراه .

وضربنا أمثلة كثيرة على ذلك مثل : (قَطام) التى حرضت وخططتُ لقتل على بن أبى طالب ، و (الشجّاء) التى ضربت المثل فى الجرأة والإقدام وعدم الرهبة أمام زياد بن أبيه . و (البلجاء) التى قطع عبيد الله بـن زيـاد يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . و (أم حكيم) التى سئمت حمل رأسها وتمنت أن تجد من يخلصها من حمله فتستشهد فى سبيل الله كمـا تـزعم ، و (عميرة امرأة مجاشع البكرى) التى تركت العيشة الناعمة إلى حيـاة القتـل والموت تحت أسنة الرماح مع الخوارج ، وكذلك (جمرة) زوجة عمران بن حطان التى وجهته إلى مذهب الخوارج . وكذلك (غزالـة) زوجـة شـبيب الخارجى المرأة التى دوخت الحجاج والتى يقال إنها تولت إمارة إحدى فـرق الخوارج بعد مقتل زوجها . وغيرهن الكثيرات مثل (الجعيداء) زوجة أبـى حمزة الشارى ، و (ليلى بنت طريف التغلبية) .

وفى الفصل الثانى : ركزنا على النوازع والرغائب النفسية للمرأة الخارجية والتى وضحنا فيه أن حياة المرأة الخارجية لم تكن على وتيرة واحدة تدور فى فلك المرأة المقاتلة . ولكن وجدنا منهن من تعيش كأى امرأة تحركها نوازعها ورغباتها الأنثوية . كما وجدناها حلماً بالنسبة للرجل (كأم حكيم) وقطرى بن الفجاء . و (جمرة) بالنسبة لعمران بن حطان ، كما وجدناها تضع الشروط أمام من يريد أن يتزوجها (كعائشة بنت يحيى الخارجية) أو تستهزئ بشيب زوجها كزوجة يزيد بن حبناء ، والتى كانت تلوم زوجها لأنه لم يرسل لهــا الهدايا وهو فى أرض المعركة ، أو تسعى إلى تطليق نفسها حتى تتزوج بمن تحبه كما فعلت (جمرة) ، أو تسعى إلى رجل يعفها وتتمتع بالحياة معه ، أو تحاول أن تثنى زوجها عن الخروج حتى تعيش حياة هادئة مستقرة ، أو تعيش فى ذاكرة الرجل بعد موتها مثل زوجة مالك المزموم . أو أن تهجر زوجهــا لأسباب مختلفة ، أو تتجسد فيها سمة الوفاء بعد وفاة زوجها فلا تتزوج بعده .

كما أشرنا إلى منزلة الابنة عند الأب وكيف كان لها تأثير شديد على سلوكه فوجدنا أبا خالد القنائى يتقاعس عن الخروج مفضلاً القعود مع بناتــه الصغار ليشرف على تربيتهن .

وجاء الفصل الثالث : ليتناول المرأة الشاعرة ، واتضح فيه مــدى فصــاحة المرأة الخارجية وحب بعضهن للشعر . كما أشرنا إلى قلة شعرهن وأســباب هذه القلة ، وغلبة المقطوعات الشعرية على شعرهن وأسباب ذلك .

ثم تناولنا موضوعات شواعر الخوارج . فوجدناها تقتصر على ثلاثة موضوعات فقط : شعر الجهاد وحب الشهادة ، مثلما ورد فى شعر أم حكــيم ومريم الجعيداء .

وكذلك موضوع الرثاء الذى شغل معظم شعرهن ، حيث كان نتيجـة طبيعية لحياتهن التى كانت سلسلة متصلة من المعـارك والحـروب وكثـرة القتلى، وأشرنا إلى أن الرثاء دار حول عدة تيارات منها :

رثاء المثل ، وإظهار الفرح والسرور فى الرثاء ، وتمنى الأخذ بالثأر ومحاولته ، وتيار يتسم بالتفجع والحسرة على القتلى كما وجدنا عند (مليكـة الشيبانية) فى رثاء أخيها وعمها .

الموضوع الثالث وهو موضوع الاستعطاف والذى ظهر أخاذاً قوياً فى بعض النماذج الشعرية .

أما بالنسبة للقالب الشعرى فنجد أنهن لـم يلتـزمن بمقـدمات لغالبـة المقطوعات على شعرهن والمقطوعة لا تتحمل المقدمة ، كمـا أن شـعرهن يدور حول موضوع واحد .

كما لاحظنا كثرة الزحافات والعلل فى أشعار نساء الخوارج مما يـدل على أنهن لم يقصدن الشعر قصداً ، بل كان نفثات شعرية لحالة نفسية يعشنها.

كما لاحظنا عدم الاعتماد على الصور الشعرية كعنصر من عناصـر الشاعرية .

أما بالنسبة للصياغة اللفظية فوجدناهن يتوخين السهولة واليسـر فلـم يكن همهن إبراز البراعة اللغوية ، بمقـدار الرغبـة فـى نقـل المشـاعر والأحاسيس.

كما وجدنا أن شعرهن يدور حول معجم خاص بهم يـرتبط ارتباطـا وثيقاً ببيئتهن والتى فى مجملها ساحات للمعارك ، أو معسكرات لها ، ولهـذا

غلب على شعرهن ألفاظ المعارك وما ينتج عنها من مــوت يعقبــه حســرة وتفجع.

كما لاحظنا غلبة التكرار فى شعرهم وذكرنا أسباب ذلك كما وجــدنا غلبة الأساليب الإنشائية على شعرهم وخاصة ، الاستفهام والنداء .

كما لاحظنا التزام الشاعرة الخارجية بعروض الشعر وزناً وقافية .

كانت هذه بعض نتائج البحث أجملناها راجين مــن الله أن تــتم بهــا الفائدة.

المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجـــع

- **الإتقان فى علوم القرآن :**

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، ت محمـــد أبـــو الفضـــل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٧هـ- ١٩٨٧م .

- **الأخبار الطوال :**

لأبى حنيفة أحمد بن داود الدنيورى ، تحقيق : عمر فاروق الطبـــاع ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

- **الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية :**

د. مصطفى الشكعة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤م .

- **أشعار النساء :**

لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى ، ت د. سامى مكى العانى وهلال ناجى ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

- **أعلام النساء :**

لعمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعـــة الخامســـة ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

- **الأغانى :**

لأبى الفرج الأصفهانى ، دار صعب ، بيروت ، لبنان .

- **الأمالى :**

لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨هـــ – ١٩٧٨م .

- **البداية والنهاية :**

لابن كثير ، دار الغد ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـــ ، ١٩٩١م .

- **بناء القصيدة فى النقد العربى القديم :**

د. يوسف حسين بكار ، دار الأندلس ، بيـــروت ، الطبعـــة الثانيـــة ، ١٤٠٣هـــ ، ١٩٨٣م .

- **البيان والتبيين :**

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت عبد السلام هارون ، مكتبـــة الخانجى ، ١٤٠٥هـــ- ١٩٨٥م .

- **تاريخ الإسلام السياسى :**

د. حسين إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م .

- **تاريخ الأمم والملوك :**

لابن جرير الطبرى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .

- **التطوير والتجديد فى الشعر الأموى :**

د. شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة التاسعة .

- **التكرير بين المثير والتأثير :**
د. عز الدين السيد ، دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

- **جمهرة رسائل العرب :**
أحمد زكى صفوت ، مطبعة البابى الحلبى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م .

- **خصائص الأسلوب فى الشوقيات :**
محمد عبد الهادى الطرابلسى ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١م.

- **الخوارج ، تاريخهم وآدابهم :**
على جفّال ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

- **الخوارج :**
د. عامر النجار ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م .

- **الخوارج فى العصر الأموى :**
د. نايف معروف - دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

- **الخوارج فى الإسلام :**
عمر أبو النصر ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٦٥م .

- **الخوارج :**
ناصر عبد الله السعوى ، دار المعراج الدولية ، الريــاض ، الطبعــة الأولى ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

- **دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين :**
د. أحمد محمد أحمد حلبى ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ، ١٩٨٨م .

- **رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية :**
د. مصطفى الشكعة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٧م .

- **زهر الآداب :**
لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحصــرى القيروانـــى ، ت. د. زكــى مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢م .

- **السياسة والأدب فى العصر الأموى :**
د. عزيزة فوّال بابّتى ، دار الشمال للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

- **شعر الخوارج :**
د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

- **شعر الخوارج :**
د. إحسان عباس ، دار الشروق ، الطبعــة الرابعــة ، ١٤٠٢هـــ – ١٩٨٢م .

- **الصناعتين :**
لأبى هلال العسكرى ، تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبى الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ - ١٩٩٦م .

- **ضحى الإسلام :**
أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٩م .

- **عبقرية اللغة العربية :**
د. عمر فروخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.

- **العقد الفريد :**
لأبى أحمد أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ، ت. أحمد أمين ، إبراهيم الإبيارى ، عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان .

- **علم المعانى :**
د. درويش الجندى ، دار نهضة مصر .

- **العمدة فى صناعة الشعر ونقده :**
لأبى الحسن رشيق القيروانى ، تحقيق . مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

- **عيون الأخبار :**
لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيورى ، الهيئة العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٣هـ ، ١٩٢٥م .

- **فجر الإسلام :**

أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصـــرية ، الطبعـــة الثالثـــة عشـــرة ، ١٩٨٢م.

- **الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى :**

د. نعمان القاضى ، دار المعارف بمصر .

- **الفرق بين الفرق :**

لعبد القاهر البغدادى ، تحقيق محمد محيى الدين عبـــد الحميـــد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- **فى الشعر الإسلامى والأموى :**

د. عبد القادر القط ، دار النهضة المصرية ، بيروت ، ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م .

- **الكامل فى اللغة والأدب :**

لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد ، ت. محمد أبى الفضل إبـــراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

- **الكامل فى التاريخ :**

لأبى الحسن على بن أبى الكرم ابن الأثير الملقب بعـــز الـــدين ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـــ ، ١٩٧٨م .

- **مروج الذهب ومعادن الجوهر :**

لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ، تحقيـــق د. مفيـــد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعـــة الأولـــى ، ١٤٠٦هـــ ، ١٩٨٦م .

- **المعجم الأدبى :**

جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيـــروت ، لبنـــان ، الطبعـــة الأولى، ١٩٧٩م .

- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين :**

للإمام أبى الحسن على بن إسماعيل الأشـــعرى ، عنـــى بتصـــحيحه هلموت رويتر ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، الطبعـــة الثالثـــة ، بدون تاريخ .

- **المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول :**

د. عزيز فهمى ، ت. محمد قنديل البقلى ، دار المعارف .

- **المقطّعات الشعرية :**

د. مسعد بن عيد العطوى ، مكتبة التوبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

- **الملل والنحل :**

لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكـــر أحمـــد الشهرســـتانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، دار صعب ، بيروت ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

- **الموسوعة العربية العالمية :**

مؤسسة أعمال الموسوعة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م .

- **الموشح :**

لأبى عبد الله محمد بن موسى المرزبانى ، تحقيق على محمد البجاوى، دار الفكر العربى ، القاهرة .

- **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة :**

للقاضى أبى على المحسِّن بن على التنوخى ، تحقيق عبود الشالجى ، ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

الفهرســـت



رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٢/ ١٧٩٦٤